علي المقري

اليهودي الحالي

رواية



علي المقري

اليهودي الحالي

رواية



الطبعة الأولى ٢٠٠٩
الطبعة الثانية ٢٠١١

ISBN 978-1-85516-415-4

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، ٠٠، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١، ٠٠
e-mail: info@daralsaqi.com

كلّ الأيام فاطمة



- ١ -

ودخلت سنة أربع وخمسين وألف[1] في ما يؤرّخ به المسلمون للزمن. وفيها، بعد أن عصفت بي رياح الدهر ونكبني الموت، قرّرت أن أدوّن هذه الأخبار عن أيّام فاطمة، وزمنها، حتى هذه السنة التي تزوّجت فيها حُلماً، لننجب توأمين: أملاً وفجيعة.

بدأ ذلك قبل سبع سنوات. حينها كنتُ أقوم بعمل بعض الخدمات لأسرتها، مقابل ما يجودون به من ذُرة وخبز وحلوى.

لم تكن لديّ رغبة في الذهاب إلى بيتهم، حين طُلب إليّ ذلك أوّل مرّة. كنت أُمضي أكثر أوقاتي مع صديقي الجديد، الذي جلبته جرواً، من أحد الأزقة، في غفلة من أمّه، فقطعت طرفي أذنيه بالموسى، وأسميته «عَلُّوس».

لم أستطع أن آخذه معي إلاّ في المرّة الثالثة. يومها أمرني أبي أن أحمل أعواد حطب إلى بيت المفتي، حسب ما كانوا

---

(١) يوافق بدايتها عام ١٦٤٤م.

يسمّونه في قرية ريدة. أخذت أمي حزمة مما جلبته من الجبل مبكراً، ووضعتها فوق رأسي، بعد ربطها بحبل مسلوخ من الأشجار. جرجرت معي صديقي الكلب، الذي ظل يتردد في المشي، كلّما شاهد شيئاً مثيراً. معه، لم أحسّ بثقل الحطب كما في المرّتين السابقتين.

أمة الرؤوف كانت تبدو غير مبالية بي، ولا بصديقي الذي يجلس أمام منزلهم ينتظرني. أختها فاطمة هي التي تفتح الباب، عادة، إذا سمعتني أنادي: «يا أهل الله.. يا أهل الدار». تأخذني إلى سطح الطابق الثالث، حيث يُطبخ الأكل ويُعمل الخبز، و هناك أضع حمولتي.

حين تبدأ عيناي بالتفتح قليلاً، متغلّبتين على آلام وخز الحطب في الرأس، تكون هي قد نشرت ابتسامتها في أجواء المكان. لم تكن تمضي، بسرعة، لتهبني ما يقرِّره أبوها أو أمّها، أو ما تقرّره هي، من حاجيات مقابل ما آتي به. ترفع، قبل ذلك، من قَدْري: «هكذا الرجال، وإلاّ فلا». تكرمني بكلماتها، الداعية لي: «بارك الله فيك.. أغناك وقوّاك.. حفظك.. حفظك».

قولها: «أدام الله شبابك وأبهج عمرك»، كان أكثر ما يفرحني، ففيه تطريني ببلوغي مرحلة الشباب، التي يؤكد كل من حولي أنني ما زلت صغيراً عنها. تكبرني، كما قالت أمي، بخمس سنوات، فيما كنت في الثانية عشرة من عمري.

في أحايين كثيرة، تقدّم لي فاطمة الشاي، وتظل تحدّق ملياً في وجهي. لا أعرف ما الذي يدهشها فيه. لا تقول شيئاً. أحياناً تأخذ رأسي بين يديها، تضمّه إلى خصرها، أو تنحني إلى مستواه، ليلامس صدرها. تهمس: «ما بك؟..ما بك؟».

- ٢ -

فاجأتني في صباح أحد الأيّام بقولها إنّها ستبدأ منذ الغد تعليمي القراءة والكتابة، وعليّ الاستعداد للمكوث معها ضحى كلّ يوم من أجل ذلك.

«ألا يُعلّمونك يا يهودِيْ الحالي.. عندكم؟».

أربكتني كلماتها، وهي تقولها بحنان وغنج لم آلفهما. فأنا يهوديُّها، أو اليهوديّ حقّها. ليس هذا، فقط، بل أنا في عينيها مليح (حالي). حرّكتُ كتفيّ مستغرِباً سؤالها، فلم أكن أعرف معنى القراءة والكتابة.

في البيت، حين سألت أبي عن ذلك، أفهمني أن الأقوال والأدعية التي يردّدها في صلاته، وُجدت في مدوّنات قديمة؛ نقلها العارفون بالكتابة إلى ألواح وجلود وأوراق، ليقرأها من يجيد القراءة. هو لا يجيدهما، كما قال، لكنّه شاهد الصلوات وسمع تعاليمها وتراتيلها من آخرين؛ كانوا هم أنفسهم قد سمعوها من سابقين.

بدا مندهشاً ومستغرباً وأنا أنقل إليه فكرة تعلّمي القراءة

والكتابة لدى بنت المفتي. حدّق فيّ كثيراً ولم يقل شيئاً. مضت لحظات قبل أن أسمعه يحدّث نفسه بكلمات غير واضحة.

في الليل، أيقظني من النوم: «اسمعني وافهمني.. تعلّم لديهم القراءة والكتابة، هذا معقول. لكن.. انتبه، حذار أن تتعلّم دينهم وقرآنهم.. هم مسلمون يا ابني ونحن يهود.. هل فهمتني؟».

هززت رأسي بالإيجاب، ومع هذا أسمعني الكلام نفسه مجدداً في الصباح، حين ناولني حقيبة جلدية مكسوّة بصوف خرفان، أدخل فيها لوحاً حجرياً أملس للكتابة، ودواة خزفية فيها ماء بُنّي فاقع، وعوداً كالسواك قال إنه للكتابة. للمحو أعطاني قطعة حرير ممتلئة بقطن، كمخدة صغيرة، ترطّب بالماء أثناء الحاجة إليها.

ملمح الفرح بدا واضحاً على وجه فاطمة، وهي تستقبلني. أدخلتني إلى غرفة بيتهم الطويلة التي يسمّونها الديوان، وفيها جلسنا متقابلين. بدأت تكتب على اللوح: «س.. ا.. ل.. م.. سالم». أعجبني اسمي وهي تنطقه من شفتيها. كنت كمن يكتشف اسمه ووجوده لأوّل مرّة. أمسكت بيدي، وعلّمتني كيف أخط الحروف، وأنطق بها بصوت مسموع.

حين أنجزتُ المطلوب، قالت: «حالي.. حالي.. يا نبيه». أضافت، وهي تبتسم: «الآن، ما يعجبك؟ أكتب اسمك سالم اليهُوديّ وإلاّ سالم الحالي، وإلاّ، أقول لك، اليهُوديّ

الحالي.. ما رأيك؟». استحييت ولم أدر ماذا أقول. اكتفيت بتنكيس رأسي، حتى لا تواجه عيناي عينيها. قالت: «اليهُوديّ الحالي، أعرف أنك تحب أن أناديك هكذا»، وراحت تحفّظني حروف اسمي أو صفتي الجديدة. بقيت ترددها بنبرة بدت معها، كأنّها تغنّي.

هكذا، صرت أتلقى دروسها كلّ صباح. علّمتني أوّلاً الحروف الأبجدية، من الألف إلى الياء. ثمّ أفهمتني كيفية جمع حرفين، أو أكثر، لتكوين كلمة واحدة: «أب، أُم، حُر، ود، حُب....».

وإذْ بدأت أحاول كتابة وقراءة كلمات وعبارات كاملة، جاءت بكتاب خُطّ بحبر ملوّن، وطلبت منّي ان أقرأ. رأيت كلماته مزخرفة، في حروف متشابكة ومنقّطة، بشكل لا يساعدني على قراءتها. لكنني ما إن سمعتها بصوت فاطمة حتى حفظتها.

في الحقيقة حفظت صوتها، وليس تلك الكلمات التي لم أستطع، أبداً، مطابقتها به. أداؤها لها، بصوت منغّم، جذبني وأدهشني. بقيت أردد بالأسلوب نفسه، سواء كنت أمامها، أو في الطريق، أو في البيت: «والشمسِ وضُحاها، والقمرِ إذا تلاها، والنهارِ إذا جلاّها، والليلِ إذا يغشاها، والسماءِ وما بناها، والأرضِ وما طحاها، ونَفْس وما سوّاها»

أتنغّم بكلمات أخرى: «والضُّحى، والليلِ إذا سجى، ما

ودّعك ربُّك وما قلَى، وللآخِرةُ خيرٌ لك من الأولى، ولسوفَ يعُطيك ربُّك فترضى، ألم يجِدْكَ يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى، فأمّا اليتيمَ فلا تقهرْ، وأمّا السائلَ فلا تنهرْ، وأمّا بنعمة ربّك فحدّث».

حين انتبه أبي، في البيت، إلى صوتي، وأنا أتلو به هذه الكلمات كاد يجنّ. ظل يقوم ويجلس، يروح ويجيء، وهو يصرخ: «يا غارة الله.. يا غارة الله». حاولت أمّي تهدئته، وهي تسأله عن سبب صراخه: «ماذا جرى؟ هو يردد أشعار عربيّة، فيها كلام حالي عن الشمس والقمر ورزق الله لليتيم». ارتفع صوته: «ما هو..؟ ما تقولي يا قحبة، هذا قرآن.. دين الإسلام هذا.. سيفسدون الابن.. سيفسدون ابن اليهودي.. سيفسدون ابن اليهودي.. يا غارة الله.. يا غارة الله».

سرعان ما سمعه جارنا أسعد، فنادى من سطح منزله: «ما بك يا نقّاش.. ما جرى لك؟». وما مضت لحظات حتى دفع باب منزلنا، ودخل يستوضح أكثر. ما استوضحه صار من حينها معروفاً لدى كلّ سكان الحي.

ما فعلته فاطمة كان كمن أشعل حريقاً في الحي اليهودي، مع أنها لم تعمل شيئاً. علّمتني القراءة والكتابة، فحسب.

- ٣ -

في صباح اليوم الثامن من غيابي عنها، جاءت إلى منزلنا. بدت أمّي مرتبكة وهي تستقبلها. سمعتها تحدّث نفسها هامسة، وهي تحضّر لها القهوة: «معقول؟ امرأة مسلمة في بيت يهودي؟».

أعرف أنّها قد التقتها مرّات كثيرة في منزلهم، أو في منازل مسلمين آخرين؛ لكن، ما لم أعرفه، هو أن زيارة مسلمة إلى الحي اليهودي كانت نوعاً من المستحيل.

بعد أن شَرِبَتْ فاطمة القهوة، التفتت إليّ: «ما به اليهوديُّ الحالي لم يعد يجيء عندنا».

«لا أعرف، أبوه منعه» أجابتها أمّي، لتندهش بعدها، وهي تسمع سؤال زائرتها عن أبي. طلبت مقابلته لتستفهمه عن سبب منعه لي.

ذهبتُ لأناديه، لكنني لم أجده. قال أخي هزّاع الذي يعمل معه في المحلّ، إنّه في اجتماع مع اليهود بسببي.

النقاشات والحوارات الصاخبة التي كانت تجري في

اجتماعات بيت الحاخام لم تعد خافية على أحد من اليهود صغاراً وكباراً. جميعها دارت حول ما تلقّيته من دروس في بيت المفتي، حتى ظننت أن القضية لن تنتهي.

حين وصل، أجابها وهو يحاول أن يواري ارتباكه: «لا يوجد شيء.. قلت، فقط، يبقى ينفعني.. أنا محتاج له».

رأيتها وقد أعادت الحجاب إلى وجهها، فلم يظهر منها سوى عينيها اللتين راحتا تتراقصان بفرح، وهما تنظران إليّ.

«أعتقد أنك غاضب من قراءته لِعِلْم العرب»

بدا أنه فوجئ بقولها. تمتم ببعض كلمات، كأنّه يرتّبها، لتكون عندها أقل إزعاجاً.

«سأقول لكِ الحقيقة.. أنتم مكانتكم غالية وكبيرة عندنا، وأبوكم على راسنا وعيوننا، والمسلمون كلّهم سادتنا، ولا نقول لهم: لا، أبداً..».

لم أدر ماذا قال بعدها. كلماته القليلة هذه، أدارت رأسي في الزمن، وأيقظت ذهني، لأكتشف المهانة التي صرت، منذ تلك اللحظة، أسمعها في أصوات اليهود، ألاحظها في خطواتهم وبين أصابعهم.

حدّثها، بعد هذه الإطلالة، كما بدا لي، عن عدم رغبته في تعلّمي القرآن. أوضحت له: «ما درّسته، هو علوم في اللغة العربية، حتى يعرف القراءة والكتابة. أنا أعرف أنه يهودي، لكم

دينكم ولنا ديننا. لا توجد مشكلة. كُلّنا من آدم وآدم من تراب. اللغة ليس فيها دين فقط، فيها تاريخ وشعر وعلوم. أقول لك، والله، توجد كتب كثيرة في رفوف بيتنا، لو قرأها المسلمون سيحبّون اليهود، ولو قرأها اليهود سيحبّون المسلمين».

كلماتها الأخيرة أبدت فيه غبطة ودهشة، لم يكن قد عرفها من قبل، كما قال لي في ما بعد.

انبسط وجهه وتجلّى، كمن استعاد بعض كرامته. لم أسمع أي اشتراطات توقّعتها منه لعودتي: «الابن ابنكم، اعملوا فيه ما تريدونه.. كلامكم حالي، يدخل القلب، ويزِن العقل.. ولا ألف رجل مثلك، ما تريدينه اعمليه، علّميه الذي ترغبين، أنتِ سيّدتنا، عيوننا وتاج رأسنا».

في المساء بدا أخي غاضباً وهو يسمع أمي تخبره عما جرى. قال: «لم أسمع بمقابلة نساء مسلمات لرجال مسلمين، ولو كنّ محجّبات في ملابس، لا يظهر أي جزء من أجسامهن، فكيف أصدّق أن إحداهن طلبت مقابلة رجل يهودي، وأن ذلك حصل فعلاً»

«أنا نفسي غير مصدّقة أن ما حدث قد حدث أمامي»

أضافت: «سحرته القحبة».

كدت أنفجر من الغضب، وأنا أسمعها تصف فاطمة بالقحبة، ولم أهدأ إلاّ بعد عودة أبي ليلاً ومناداته لها: «صلّحي لي شاهي يا قُحيتي.. تقحبي له».

بدا مبسوط المزاج، فهو عادة لا يطلب منها شيئاً إلاّ بالقول: «هاتي يا قحبة....»، «روحي يا قحبة..»، «اسكتي يا قحبة». شعرت أنّ أمّي ليس لديها كلمات أخرى تصف بها ما حدث.

رجعت إلى تلقي الدروس. لكن أبي طلب إليّ، أيضاً، في اليوم نفسه أن أذهب إلى بيت الحاخام لأتلقى دروسه هو الآخر.

الأثر الذي أحدثته دروسُ بيت المفتي في اليهود في توجههم لتعليم أبنائهم كان واضحاً. صاروا من الكثرة بحيث لم تستوعبهم ساحة بيت الحاخام، فقسّموهم إلى فترتين.

اجتهدت لتلقي الدرسين، درس العربية صباحاً، والعبرية عصراً. بقي جارنا أسعد يتردد كثيراً إلى بيتنا، يقول لأبي:

«هيّا عد تمنع ابنك من بيت هؤلاء الكفّار الملاعين».

«اسكت يا أسعد أنا عند الله وعندك. لو يسمعونا»

«مالك خائف هكذا. هم بعيد»

لم يكن أبي يرفض هذه الضغوط، فقط، بل بدا، بعد تلك الكلمات، التي سمعها لأوّل مرّة من بنت مسلمة، بل من إنسان مسلم، حسب قوله، أنّه لا يمانع، حتى لو أصبحت مسلماً.

ـ ٤ ـ

حين وصلت إلى بيت المفتي في صباح اليوم الثالث، من أيام عيد الأضحى، أو العيد الكبير، كما يصفه المسلمون، وجدتها تبكي بحُرقة، وليس هناك من مجال لتقديم كلمات التهاني إليها وإلى أبيها وأمّها، وأختها أمة الرؤوف، حسب ما حفّظني أبي: «أهنئكم بعيد الأضحى المبارك، أعاده الله عليكم وعلى كل أمّة محمد باليُمن والبركة».

أوضحت أختها: «تبكي من الفجر.. أبي أمر الجزّار بذبح الخروف المخصّص للتضحية في العيد. ماطلتنا يومين، وصباح اليوم، كان هو الوقت الأخير من أيام الذبح الشرعية، لهذه المناسبة. في أوّل يوم، قالت إنّه يحتاج إلى علف أخضر، ومزيد من الملح، حتى يصير طعم لحمه ومرقه شهيّين. في اليوم الثاني أقنعتنا أن ذبحه، وهو جائع وظامئ، يُعتبر حراماً في كل دين ومذهب.. لا يرد لها أبي طلباً، لكنّه....».

كفكفت فاطمة دمعها، وهي تنظر إليها، كأنّها تأمرها بالصمت، أو أنّها لا تريد إكمال سماع الحكاية.

بعد أن هدأت، وصرنا وحيدين، قالت: «لقد قتلوا أخي بدون شفقة.. قتلوا أخي، وتركوني في الوحشة.. شعرت أن عضواً من روحي قُطِع، قتلوا أخي».

لم أكن أعرف أن لديها إخوة غير أمة الرؤوف. في ما بعد، أدركت فقط، أن الأخ الذي تقصده هو الخروف.

يومها سألتني كثيراً عن عَلُوسْ، ثم خرجت معي لتراه، كأنها تتعزى بوجوده. هزّت رأسها وهي تردد الكلمة نفسها التي كنت أنا أيضاً، أحييه وأناديه بها: (س ش ص و).

سألتني: «هل تقدر تكتب هذه الكلمة؟»

«نعم.. كيف لا أقدر؟ إنها سهلة»

ابتسمت وهي تدرك، ربّما، أنني أمزح. فالكلمة التي يمكن لأي أحد نطقها؛ هي نفسها التي ليس بمقدور أحد كتابتها مطابقة لما هو منطوق، وإن ظنّ كثيرون أنهم استطاعوا تركيبها، في شكلين «سشصو . .شسصو».

يرافقني إلى بيت المفتي، يجلس أمامه، عند طرف الحائط. وما إن أخرج حتى تواجهني عيناه، كأنّه يظل شاخصاً إلى الباب، في انتظاري.

بعد أن غدا جسده مشرقاً، وطالت يداه ورجلاه، كان بعض الناس، إذا رأونا نمشي سوية، ولاحظوا يدي على رأسه، أو رقبته، أو ظهره، صاحوا: «يا كلب».

من كانوا يقصدون: علّوس، أم صاحبه سالم؟ عيونهم تصوّب نحوي أثناء حديثهم. ربما، أرادوا شتمي بمناداتي بالكلب. لا أظن أنني شعرت، في يوم ما، أنّ هناك فرقاً بيني وبينه. وفي حال اكتشاف فروق، فإنني كنت أراه أفضل من كثيرين من النّاس.

عندما اختفى، فجأة، في إحدى الليالي، ووجدنا، في الصباح، بيته خالياً منه، واستني فاطمة بإعطائي كتاباً، قالت إن اسمه «فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب»، ألّفه المرزباني.

«ستعرف قراءته بعد إكمال تعلّمك للغة العربية».

بقيت أربعة أشهر، لا أملّ البحث عنه. كلّ صباح أذهب لأرى إذا ما كان قد عاد ليلاً إلى البيت الذي كوّنته، أمام مسكنتا، من قراميد الخشب وأعواد الشجر اليابس. لا ينسى أبي أنه يتّسع لكلبين. بقي يقول، في أي ليلة يغضب عليّ: «روح ارقد بجنب صاحبك»، حتى بعد مرور فترة، ليست قصيرة، على فقدان هذا الصاحب، وتهدّم بيته من شدّة الأمطار والرياح.

في اليوم الأوّل من الشهر الخامس، رحت أبحث عن الكتاب لأبدأ أعزّي نفسي به، ولو من خلال تحسّسه. لم أجده، وتأكّدت، بعد أيّام، أنّه ضاع، ولا دليل إليه. اختفى، تماماً، كعلّوس.

- ٥ -

في السنة الثانية من ترددي إلى بيت المفتي، صرت أجيد القراءة والكتابة باللغة العربية. بدأت أقرأ مخطوطات مختصرة في الفلسفة والفقه الإسلامي، وفي علوم الحساب. أعجبني كتابٌ في علم الفلك، وآخر في الطب، بدون عنوان. قالت فاطمة إنّه لابن سينا، مع أنها ليست متأكدة، لعدم وجود اسمه عليه. ما فوجئت به هو وجود الأسفار اليهودية باللغة العربية بين هذه الكتب.

صرت أجيد الكتابة والقراءة بالعبرية، أيضاً. درستها في بيت الحاخام، إلى جانب كتاب التلمود، حيث تعمّقت في شروح المنشا والجمارا. حين عرفت فاطمة ذلك، طلبت منّي أن أعلّمها كتابة وقراءة الحروف العبرية. فرحتُ ولم أندهش. كانت تعرف الكثير عن الديانة اليهودية؛ ربّما أكثر من بعض اليهود.

في وقت غير طويل، بعد أقل من سنة، أجادت قراءة العبرية. قالت لي، يومها، بأسلوبها المحبّب لديّ: «الآن، لو

تتفضّلوا، وتتكرّموا، وتعلّموني الشريعة اليهودية، لأعرف، هل توافق ما قرأته منها وعنها في الكتب العربية؟». قلت: «لم يبق، بعدها، إلاّ منافستك الحاخام نفسه». ضحكت: «أنتم أبناء عمومتنا، وأحبّتنا في الله، وجيراننا».

بكلماتها، ظلّت تشفي جراح الآلام التي كنت أتلقّاها، وكبرتُ معها.

أتذكّر ذلك النهار، يوم بدأت أسأل: من نحن؟. كان سؤالاً كبيراً عليّ، أنا الذي لم أتجاوز حينها العاشرة. أعرفُ، فقط، أن اسمي سالم، واسم أمّي عفراء، وأبي يوسف النقّاش، وأخي يُدعى هزّاع. وأكبر معلومة أعرفها هي اسم القرية، ريدة التي نعيش فيها.

حينها بدأ أبي يأخذني إلى محلّه في السوق. أبقى أشاهده وهو يجهّز القمريّات، وينجر الأبواب والنوافذ الخشبية، إذا لم أجد من يشاركني في اللعب.

«من أين أنتم؟»، سألني حسين، ونحن نلعب أمام دكّان أبيه، المجاور لمحلّ أبي.

قلت له: «أنا من ريدة.. من هذي البلاد». صاح: «مُش حق أبوك.. هذي بلادنا.. أنت يهودي كافر».

لم أعرف ماذا تعني كلمة كافر. أعرفُ، فقط، أنني يهودي. الأطفال الذين ليسوا من حيّنا، جميعهم، ينادونني يا

يهودي. والكبار منهم يصفون سكّان حيّنا باليهود. رأيت الأمر سهلاً. ظننتُ أنني يهودي نسبة إلى اسم الحي، ليس إلاّ.

قبل يومين من سماع هذه الكلمات، مازحني عجوزٌ كبيرٌ، فنتفت شعرة بيضاء من لحيته. صرخ فيّ وقرص أذني، وهو يقول: «شوف على يهودي ابن يهودي.. ملعون».

أثارني، فقط، أسلوب حسين حين نطق عبارته بلغة مفخّمة. بدا مثل المُبلّغ الذي شاهدته في السوق، وهو يلقي بياناً رسميّاً صادراً من حضرة أمير المؤمنين، الإمام. ضحكت لأسلوبه هذا، ويبدو أنّه أعتبر ذلك سخرية. قال بلهجة مهدّدة: «أنا شورّي لك»[1]. لكنّه في الحقيقة لم «يورّي» لي أو يُرِني. يعرف أن مهادنته لي تعني التمتع بفرصة اللعب معي، خاصة في تلك الأشكال التي كنتُ أبدعها، وتثير دهشته، ودهشة الآخرين الذين يجيئون ليلعبوا معنا. مع هذا، لم ينس أن يضيف: «أبي قال لي إن اليهود لا يحق لهم أكل الحلوى المدنية»

قلت: «ما أعتقدش[2]»؛ فردّ سريعاً: «أقول لك قال أبي، تقول: ما أعتقدش؟».

كان حسين يبدو في العاشرة من عمره، مثلي تماماً، ولم أكن قد ابتعدت عنه لأتفرّغ للدروس.

---

(١) سأريك أو سترى.

(٢) لا أظن هذا صحيحاً.

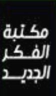
في البيت شرح لي أبي ماذا تعني كلمة اليهود، وما هي الممنوعات عليهم. ليس من بينها الحلوى العدنية طبعاً: «هذه الحلوى تُجلب من عدن، هي مرتفعة الثمن، ولا يأكلها إلاّ الإمام وعمّاله، وحاشيته. لا يستطيع الحصول عليها، لا اليهود، ولا المسلمون».

ـ ٦ ـ

لم أعد أتلقى دروساً في بيت المفتي، خلال عامي الثالث، لكنّني كنت أشرح لفاطمة جُملاً تقرأها بالعبرية، في التلمود، ولا تستطيع فهمها. تندهش لما تقرأه. بشكل أخصّ، أثارتها الأناشيد والمزامير.

بقيتُ أقرأ الكتب الموجودة في رفوف بيت المفتي، ولم أجرؤ على أخذها معي لأقرأها خوفاً من أن يراها أخي أو أسعد. بدأت، في هذه السنة، ما يمكن تسميته مرحلة المتعة في القراءة. قرأت: «الفِصل في المِلل والأهواء والنِحل» لابن حزم الأندلسي، و«المِلل والنِحل» للشهرستاني. قرأت الأسفار والأناجيل بالعربية، وكتاباً عن الأصنام لابن الكلبي. ولا أنسى القرآن، طبعاً، و«فصوص الحِكم» لابن عربي، وديوان الحلاّج، وسيرة عنه.

مضت الأيام، وقيل إنّ فاطمة رفضت الزواج من ابن عمّ أبيها الصفيّ. في البداية كنت ما أزال صبيّاً، ولا يمكنني فهم ما



يقال. بعدما، أصبح رفضها واضحاً لديّ، مع أنني بقيت لا أعرف مقصدها.

بعد زفاف أختها أمة الرؤوف، التي تصغرها بخمس سنوات، إلى أحد أبناء عمومتها في صنعاء وذهابها معه إلى هناك، لم يبق في بيت المفتي أحد أستطيع أن أكلّمه، سوى فاطمة.

إلى جانب ما تقضيه من وقت معي في مراجعة الكتب العربية والعبرية، بقيت تستقبل خدماتي وحيدة. إذا كان أبوها حاضراً، أو أمّها، فإنّهما يعرفان، عادة، أنني أتيت، ولا يعبآن بالتفاصيل. هي التي تتصرف بكل الأمور. تكافئني، وتعطيني أيّة ملاحظات حول الأشياء المطلوبة.

تشجّعتُ، يوماً، وسألتها: «لماذا ترفضين الزواج؟.. لماذا لا تتزوجين مثلها؟»

فاجأها السؤال، وبدا أنها لم تنتظره منّي، أبداً. تفحصت وجهي كثيراً: «هل تريدني أتزوّج.. أروح إلى بيت زوجي، ولا تعد تراني.. هه.. تريد هذا؟»

جوابها كان أكبر من سؤالي. لم أقل شيئاً، ومضيت إلى حال سبيلي. لكنّني لم أنس ما قالته، حيث أبحرتُ في تيه لا نهاية له.

في اليوم التالي بدت وكأنّها حضّرت جواباً آخر عن سؤالي، حين ناولتني كتاب «طوقُ الحمامة في الألفة والأُلاّف»

لابن حزم الأندلسي. لا أدري لماذا أرادت أن أقرأه بالذات، من بين الكتب التي صرت أعرف طريقها بنفسي؟

أخفيت الكتاب عن الأنظار في صدري وأنا آخذه معي. مع هذا لمح أسعد كبر صدري، وسرعان ما مدّ يده إليه. تصرّف وكأنّه عرف جيّداً ما به، ولولا تدخّل أبي يومها لأوشك جارنا هذا أن يقتلني.

بقينا يومين في صمت، حتى قرأت الكتاب وظننت أنني اكتشفت ماذا تقصد بإعطائه لي لأقرأه. كانت هناك، على الأرجح، أربعة أسطر ونصف، أرادت منّي قراءتها. لم تُفصح عنها علناً أو إشارة، لكنني فهمت ذلك. اعتبرتها أوّل الأسرار بيننا، ولم أستطع البوح به، إلى الآن. حوّلني هذا الكتاب، وما قرأته من قبل، إلى كائن آخر، أو لنقل، إنسان له إحساس.

«اليهوديّ الحالي» لم يعد وقع سماعها عندي كما كان. صحيح أنّها كانت تفرحني، إلاّ أنّني صرت أحسّ بأنّ هاتين الكلمتين هما سرّ حياتي، إذا لم تكونا حياتي كلّها. معهما أصبحت أكتشف من أكون، ومن ساكون. لا أعني أنّي أصبحت أعلم الغيب، إنما بقيت غير مُبالٍ بما سيحصل لي، إذا ما كنت في ظلّهما الحاني، بلذّة المودّة وهي تتدفق من فاطمة أثناء نطقها لهما.

مناسبات، وأسباب كثيرة كانت تحفّزها لمناداتي بهاتين الكلمتين. أحياناً أبدو سعيداً، فتقول: «اليهُوديّ الحالي اليوم

سالي.. الله يزيد السُّرور». وإذا جئت مبكّراً: «مثل ضوء الصبح جاء اليهوديّ الحالي». أتأخر فتسأل: «ما به اليهوديّ الحالي بطّأ إلينا؟». أمّا إذا اعترى وجهي الحزن: «يوووه.... اليوم اليهوديّ الحالي زعلان.. ما يإللاّ، ضروري تطرد الهمّ من رأسك.. ما بِش[1] حاجة تستحق في هذه الدنيا الضجر من أجلها».

تقوم بمسح رأسي بأصابعها إذا ما بان الحزن في وجهي وصوتي، أمّا إذا رأت أنّه قد مضى بي إلى حال مختلف فتضمّ رأسي إلى صدرها، وتظل تتحسّسه إلى أن أهدأ، أو ينتابني نشيج بكاء من الصعب إيقافه.

روائح صدرها العبقة بالعرق المشهّي تزيد فيَّ هواجس الشجن. كانت لديّ حاجة، ربما، لأبكي. لم تجد تحقُّقها إلاّ حين تحتويني بذراعيها، ويلامس رأسي صدرها.

قلت لنفسي سأمضي سنوات طويلة، وأنا ممتلئ بالبهجة. لكن الأيّام مضت، وسرعان ما اكتست البهجة بالأشجان، وإن تجلّت رغبة وشوقاً لتضمّ رأسي إلى صدرها. عندما تكرّر ذلك، ورأتني مرّة، وقد بان انبساطٌ في وجهي وكلامي، هزّت رأسها كمن اكتشف شيئاً: «يوووه والفعلة[2]. والله، هكذا،.. يهوديّ

---

(١) لا يوجد.

(٢) يا للفعل الذي قمت به.

حالي، بس، شيطان لعين، ما فيش مثلك في الذكاء.. تمسكن أمامي لأضحك.. يووووه».

ضحكتُ. حيث بدا كلامها مزاحاً. حاولتُ افتعال الكثير من القهقهات لأنجو من مصيدة الخجل.

اقتنعتُ بأنني لم أخدعها. كيف لي أن أخدعها؟ ما قمتُ به، كما يبدو لي، هو أنني، بدون قصد، أظهرت وجهين منّي، وجه ألم لا أدري أين ومتى وكيف تكوّن، ووجه مراوغة لم أستطع أن أحدد صفة واضحة لمقاصده، غير أنّه: لفّ ودوران حول غُرف مغلقة، بمثابة محاولة إدخال مفتاح مختلف في قفل باب موصد، لعلّه يفتح صدفة.

- ٧ -

بدا واضحاً أنّ أباها صار يتردّد كثيراً إلينا، إذا جلسنا وحيدين في ديوان البيت، وكذلك تعمل أمّها. هل كانا يرقبانا؟

الشعور بالمراقبة عزّزه أبي، وقَطَعهُ في الوقت نفسه. قال: «من غدوة تجيء تشتغل معي في المحل.. يكفي قراءة.. شبّيت الآن وصار من الضروري تساعدني.. بعدها نزوّجك.. نختار لك بنت يهودية حالية».

قراره كان نهائياً. رجوته أن يدعني أذهب إلى بيت المفتي ليوم، فقط، لآخذ بعض حاجياتي هناك، من القراطيس والكتب.

في الصباح، احتارت فاطمة وهي تسمع ما قلته. لم ترد بأي كلمة، حتى كلماتها المبهجة التي تواسيني بها اختفت هذه المرّة. اكتفيت بشرب الشاي الذي قدّمته لي، وإذْ خطت رجلاي نحو الباب، قلت: «لا أستطيع أن أحيا بدونك».

«ومن قال أنّك سوف تحيا بدوني، أو أنني سوف أحيا بدونك. سنبقى معاً إذا وثقت بقدرنا».

فكّرت في طريقي في ما قالته. كيف لنا أن نلتقي مرّة أخرى؟ أثق باستحالة الحياة بدونها، فهل أنا أثق بقدرنا ؟

لم أبق، يومها، أفكّر في قدرنا الموثوق. بعد عودتي إلى البيت وجدت أمّي تصرخ وتضرب بيديها على رأسها وفخذيها. تجلس بجانب أخي الممدّد على فراشه، فيما أبي، في الجانب الآخر، يحاول فتح فمه وإرغامه على تجرّع مشروب بنّي.

هزّاع، الذي يكبرني بسبع سنوات، كان يصيح رافضاً الشُرب: «حامض.. حامض». قال أبي إنه سيتعافى، وراح إلى عمله. طلب منّي البقاء مع أخي، على أن أبدأ من الغد العمل معه في المحل.

جلستُ إلى جواره، أتلمّس وأدلّك جسمه الحار. بدت الحمّى وقد استأثرت به كثيراً. أشارت أمّي إلى حبوب ملتهبة على يديه ورجليه، تخرج منها قطرات دم مع سائل فاقع، إثر حكّها بأظافره. قالت إن النّامس قرّصه، والصفراء لم ترحمه.

بقي يتأوّه، ويهذي بكلمات وجُمل غير مرتّبة، أغلبها غير مفهوم. لم يكن، وهو الذي بلغ الثانية والعشرين، قد أبدى رغبته في الزواج أو أبدى إعجابه، على الأقل، بفتاة ما. استغربت حين سمعته يهذي بالفاتنة المليحة، ساحرة العقل والرّوح، ملجأ اليتيم، حاضنة المتشرّدين، الطيّبة، الحنونة، نيذ الحياة. سألتُ أمّي: «مَن هي نيذ الحياة هذه.. بِنت مَن؟»

أجابت: «أورشليم».

باستثناء أيام السبت، لم تتح لي فرصةُ الاقتراب منه، بسبب قضائه أكثر الأوقات في العمل مع أبي. يحدثني عادة عن العلاقات والاحتكاكات مع المسلمين. يؤكد لي مجيء يوم يظهر فيه المسيح المنتظر الذي سيُحوّل المُلك إلى اليهود. بغضب كان يقول: «في ذلك اليوم، سأنتقم من كلّ المسلمين، حتى الذين لم يفعلوا بي شيئاً، يكفي أنهم صمتوا، سأسقط الأجنّة قبل أن يولدوا، وإذا حدث، فلن أدعهم يعيشون حتى يصبحوا أعداء أقوياء، هم أعداء أصلاً، قبل أن يولدوا، قبل أن يتكوّنوا حتى».

أدركتُ يومها أنه لن يصل، أبداً، إلى أورشليم البعيدة، بل لن يبرح حتى مشارف ريدة. لقد مات مع قدوم الليل، بعد أن أفرغ هذيانه وصمت.

- ٨ -

وفاة أخي كانت سبباً آخر لإصرار أبي على شغلي معه. علّمني في الأسبوع الأوّل أساسيّات صناعة القمريّات من خلال قوالب خشبية وحجرية وقصديرية مُجزّأة، ومشكّلة على هيئة أقمار وأهِلّة وشموس وعيون ونجمات سداسية، مثل نجمة داوود اليهودية، تماماً.

تدرّبت على إنجاز هذه الأشكال بالزجاج المُعشّق، وبفواصل بارزة، بطول الإصبع الصغير، من النُّورة البيضاء (الجص). وهي المادة نفسها التي تحتوي جميع التكوينات في شكل عام، نصف دائري، أو نصف قمري. كانت القمرية البالغ طول قاعدتها أكثر من ثلاثة أذرع، والمطلوبة من قبل أصحاب البيوت ذات النوافذ الكبيرة، تجذبني لتنفيذها، رغم صعوبتها، أكثر من القمريّات الصغيرة.

تعلّمت، أيضاً، الحفر والنجارة والزخرفة والنقش على جدران البيوت المطليّة بالجص، وعلى ألواح الأبواب والشبابيك.

يتقن أبي الزخرفة والنقش، بالإزميل والقدّوم، على الجدران والأبواب، أكثر من أيّ شكل آخر. ربّما بسبب تفنّنه اللافت بالنقوش صار يُعرف باسم النقّاش. أخذني معه إلى خمسة بيوت لأتعلّم منه تنفيذ الأعمال وتركيبها.

في الأسبوع نفسه تعرّفت، أكثر، على جيراننا في العمل وأقربهم قاسم المشهور بالزنّاط ، الذي لم يتح لي فرصة لأسأله عن ابنه حسين، رفيقي في اللعب قبل خمس سنوات. يكثر من الحديث عن محتويات دكّانه الصغير. سمعته يتباهى بما لديه من أقمشة صوفية وحريرية مستوردة من الهند واسطنبول وفارس واليابان، وأنّه لا يبيع سوى العسل الدوعني الأصيل، من حضرموت، والحلوى المخّاوية والحيسية المجلوبتين من المخا وحيس، إلى جانب القرفة الهندية والبن البلدي والزبيب الخولاني. أشياء أخرى كان يذكرها، بعضها ظاهرة، وأخرى مخفيّة.

جارنا الثاني هو نفسه جارنا في الحي. في انهماكه بالعمل كان يبدو لي وكأنّ لا أحد غيره في ريدة يختص بصناعة وإصلاح الأحذية. يداه مشغولتان دائماً بحذاء. لا يرفع رأسه ويرى بعيداً إلاّ إذا سمع أحدهم يناديه: يا أسعد اليهودي. مع أنّهم في الحي ينادونه أسعد، فقط.

في أكثر الأيام، بقي يمر من أمام هذه المحلاّت شيخ ذو لحية طويلة غير مشذّبة يدعونه صالح المؤذن، قيل إنّه هو من

يؤذن للصلاة. لم أسمع صوته، بسبب بُعد المسجد عن حارتنا، لكنّني سمعت عنه منذ سنوات. قال أبي إن صوته شجيٌّ، يُطرب القلب، وأعاد خبر المغني حاييم: «رفض تغيير سكنه المجاور للمسجد والذهاب للسكن في حارة اليهود تولّهاً بصوت المؤذّن، لا ينام إلاّ بعد أن يسمعه يُردّد تسابيح قبل صلاة الفجر».

«متى ستخرجون من بلاد العرب؟» هي أوّل عبارة سمعتها من المؤذّن، ويقصد بها اليهود. بعد أيّام قالها بكلمات أخرى: «متى سترحلون إلى بلادكم؟».

بدا على أبي الضيق، قال: «أين نروح. .أين بلادنا؟». صمت المؤذّن لحظة، كمن يبحث عن إجابة: «أنتم تقولون إنّ بلادكم بيت المقدس. .روحوا إليها ».

«ها. . . .» تنهّد أبي. ليضيف المؤذّن: «أو روحوا حتى إلى جهنّم».

كلامه يثير لدى أبي وأسعد الكثير من التوتر والقلق. يظلاّن يناقشان الموضوع فترة طويلة من صباح أيّ يوم يُعَكّر فيه مزاجهما بأسئلة الوطن، بين الرحيل إلى أورشليم، أو البقاء في ريدة.

فاطمة لم تكن وطني، بل هي، بالنسبة إليّ، البديل من الوطن. لم أنسها منذ أن افترقنا. ثمانية أشهر مضت، وهي في بالي. لا أتذكّرها، فقط ، بل أتحاور معها أيضاً، سواء في

يقظتي أو في نومي، هي كل أحلامي. آخر مرّة استيقظت إثر همساتها لي: «نسيتني يا يهوديّ الحالي؟». نهضتُ وأنا أقول: «لا.. لا.. كيف يمكن ذلك؟»، ولم أردّ على أمي وهي تسألني: «ماذا تقول.. من تكلّم؟»

في اليوم نفسه، في اللحظات الأولى من مجيئنا إلى العمل، جاء شخص حافي القدمين، وبدون جَنْبيّة. يلبس ثوباً بدون إزار. قال: «بيت المفتي يقولوْ لكم تجوْ تُصلّحوْ القمرية حقّهم». أجاب أبي: «حاضر.. على الراس.. أمرك، من العين».

مقابل كلماته المعتادة هذه، كنت أسمعهم يردّون عليه: «تسلم .. يسلم راسك»، أو «يس على عيونك». هذا لم يقل شيئاً، كان ضجراً.

أضاف أبي حين لم يسمع جواباً: «يامروا.. من العين» مرجعاً، في نبرة واضحة، حق الأمر إلى بيت المفتي وليس للداعي، الذي عرفت من أبي أنه جزّار: «هم طيبون لكنّهم صاروا قساة كضربات سكاكينهم على اللّحمة، رغم أنهم مثل اليهود، جميعنا تحت مقصلة واحدة تهددنا يومياً بالإعدام».

أردت أن أسأله: «وأنتم اليهود، الم تصبحوا قساة مثلهم؟». لكنّني تراجعت لأقول له ما هو أهم عندي: «سأروح أنا إلى بيت المفتي.. قدنا اعرف اصلّح القمريّات».

«ما باللاّ ضروري من عمل يُشرِّف.. أنت عادك تتعلّم».

أكّدت له أنني صرت أعرف كل تفاصيل الأعمال التي نقوم بها، وإنّ أسهلها هو صناعة وتركيب وإصلاح القمريّات. ذكرت له الكثير من الأمثلة، على ما قمت به من أعمال ناجحة قبل أن يوافق.

مررت على بيتنا لألبس ثوب يليق بمقابلة فاطمة، إذا أُتيحت لي رؤيتها. سألتني أمّي: «إلى أين؟». قلت: «إلى أورشليم». ولو أنّها لم تلحظ ابتسامتي لصدّقتني.

فتح لي المفتي الباب، وأخذني إلى الديوان، في الطابق الثالث. نزع قطعة قماش كانت تسدّ فتحة الكسر في القمريّة:

«من فضلكم، أصلحوا هذا، يصلح الله حالكم».

رحتُ أتحسّس الفتحة. بدت على شكل نجمة داوود السداسية. «يا ترى، أيّ حجر طيّرها من مكانها.. أية عاصفة هبّت وانتزعتها؟» قلت لنفسي.

أردت العودة إلى المحل لآتي بالأدوات والأشياء اللازمة لإصلاح الكُسر. لكن، كيف أمضي وأنا لم أر فاطمة؟ ماذا أعمل من أجل رؤيتها، بعد أن صارت قريبة، لا تبعد عني سوى ست خطوات، على الأكثر؟ قلت له: «أذكُر يا سيّدي أن ابنتكم المصونة كان عندها قطعة شفّافة من العاج، يمكن أن نسدّ بها الفتحة.. هي حالية». أجاب: «ما أظُن.. لكن، سأسألها»، وخرج من الديوان.

بقيت أنظر إلى القمريّات. يثيرني شكل النجمة السداسية.

يضعها اليهود في كل قمرية، يحفرونها على الأبواب والنوافذ الخشبية وينقشونها مع الأشكال الوردية والقمريّة والشمسية، على جدران غرف البيوت المجصّصة بالبياض. على الأرجح، لا يعرف المسلمون أن هذه النجمة لها دلالات كثيرة عند اليهود. يعتبرونها شكلاً فنياً ألفوه، ولم تزد عندهم أكثر من ذلك.

سمعت حواراً بجوار باب الديوان، بدا أنّه عن قطعة العاج، وإمكانية مقابلتي لفاطمة لتستفهم أكثر.

«السلام عليكم، ما تقولوا، حفظكم الله، بشأن قطعة العاج.. أين هي؟» قالت فاطمة، وكأنّها على عجل، أو أن أباها قد حدّد لها ما تقول وكيف. ليس من عاداتها العجلة، أو الجمع، في كلامها، بين السلام والتحية والدعاء لله أن يحفظني، أو الجمع بين موضوع وآخر، في الوقت نفسه. للسلام عندها حلاوته، وللدعاء طراوته، ولكل مقام مقال.

«كنت أراه بين حاجاتكم، عندما تخرجوا لي من بينها الكتب» قلت لها، وأنا أراها لأوّل مرّة مغطّاة بستارة ملوّنة تحتوي كل جسدها، مع لثام يغطّي وجهها، ولا يُظهِر منه سوى فتحتين صغيرتين للعينين.

قالت: «كذا؟ جوّ إِنْشروّ[1]» ثم التفتت إلى أبيها: «يَحفَظْكُم، سالم هو ابن البيت. تربّى فيه.. ما تخافوش».

---

(١) إذا كان الأمر كذلك، تعالوا انظروا.

استمرتُ عبارات سمعتها، من أبي كثيراً، لأقول له أيضاً: «أنتم سيّدنا، وتاج رأسنا». اطمأن، أو بدا لي كذلك. ولم يتبعنا إلى غرفة فاطمة. ما زالت أشياؤها كما هي متناثرة كالكتب بين الرفوف الحجرية والنافذة والزوايا والزنابيل.

ابتسمت وأنا أتفحّص شكلها. عيناها تتراقصان. ربّما كانتا سعيدتين، لأنّهما تنظران إليّ. همست: «اسمع، العاج ما ينفع، غدوة تجيء بعد الظهر، من شأن تصلح القمريّة. أبي يكون عادة مسروراً في هذا الوقت.. ما يحنق لو ظهرت عليك». ظلّت تبحث في صندوق خشبي حتى أخرجت قطعة بنّية ملساء، على شكل قرن ثور. قالت: «هذا هو العاج».

أدركتُ أنّني لم أكن أعرف العاج، فما رأيته لا يصلح استخدامه في القمرية. ما تذكّرته كان شيئاً آخر، شكلاً رأيته، ربّما، في الحلم، وصرت أتذكّره كحقيقة.

اعتذرتُ لأبي فاطمة، ووعدته بالمجيء في اليوم التالي مع الأدوات والمستلزمات الخاصة لإصلاح الكسر. لم أطلب منها رؤية وجهها. لم أجرؤ على ذلك. اشتقت إلى ابتسامتها التي لا تفارق ثغرها، لكنّها ليست في حال يسمح لها أن تُشرق بدون حجاب.

عُدت إلى البيت لأغيّر ملابسي، قبل أن أرجع إلى المحل. سمعتُ، وأنا أمرّ من أمام بيت جارنا أسعد، صوت غانية. كان غناؤها يصلني من خلف الباب متوافقاً مع إيقاع حركة المكنة

في يدها. بقيت منتصباً في مكاني. أعادت الأغنية نفسها، عدّة مرّات، حتى حفظت بعض كلماتها:

«والطّبِيْنَة طَيبتي[1]

شلّت الزوج من يدي

والطّبِيْنَة طَيبتي

ياعذابي يامحنتي

والطبينة طُيبَّة

بنت قحبة رهيّنة».

كان أسعد قد تزوّج من امرأة ثانية تسمّى سُعدة. قالت أمّي إنّ أباها وأمّها ماتا فصارت وحيدة في المنزل «لديها أخوان تزوّجا بنتين في صنعاء وبقيا هناك. تزوّجها لينجب منها الذكور، بعد أن أنجبت له غانية أربع بنات. سُعدة بعمر ابنته صبا».

أعترفُ بأنّ صبا هي حلمي الأنثوي. فاطمة بالنسبة إليّ الروح والجسد معاً، عندها يتلازم العقل والرغبة، الأمان والحرّية؛ أمّا هي فكانت الجسد الذي يطغى على الروح، هي الأنثى مضاعفة، فتنة وُجدت لتشهّي اللذة، وبغير ذلك لا تأبه.

سألت نفسي مرّة، إذا كنت أخون فاطمة في تخيّلاتي لصبا؟

كان يكفي أن أتخيّل نهديها النافرين وعجيزتها الممتلئة لينسكب مائي بين فخذيّ.

---

(1) الطبينة هي الضرّة أو الزوجة الثانية.

أثناء دراستي لدى الحاخام تقطّعت لي في الطريق، قالت: «لِلْمَة ما يقرّوناش نِحن البنات معكم؟»، ثمّ أضافت: «تجي، نلعب غُمّاية[1]، بعدما ترجع؟».

لا أدري لماذا لم أستجب لدعوتها. هل خفتُ منها؟ أم إنّها فاطمة، أعني لم أسمح لنفسي الذهاب إلى غيرها، ولو للّعِب؟

جهزتُ في اليوم التالي المستلزمات لأذهب إلى بيت المفتي. لم يفتح لي الباب هذه المرّة، زوجته هي التي استقبلتني. رأيته يجلس في إحدى زوايا الديوان. سلّمت عليه وبدأت أشتغل في ترميم القمرية بالجصّ والزجاج.

دخلت فاطمة محجّبة الوجه، وناولتني فنجاناً من القهوة. بدا أبوها مرتبكاً. ربّما، لم يكن موافقاً على مجيئها، وظهورها عليّ، مع ذلك، لم يقل شيئاً.

ما لم يكن بالحسبان هو رغبته في الخروج: «أسرع، رعاك الله.. عندي زيارة إلى ابن عمّي الصفي».

سرعتي في العمل تعني عدم تحقق ما أرادته من لقاء وجبر خاطر، إذْ عليّ مغادرة البيت في الوقت نفسه الذي سيذهب فيه أبوها للزيارة.

لن يتركنا وحدنا، كما كان يفعل سابقاً. لقد كبرتُ،

---

(١) لعبة التخفّي والظهور.

وصارت هي تثير الكثير من القلق فيه، خاصّة في رفضها المتكرر للزواج.

بدت أنّها راحت تفكّر بصمت عميق. فجأة، قالت: «لو سمحتوا يا أبي .. سالم هو مش غريب.. تروحوْ أنتو للزيارة.. وهو يجلس يكمل عمله بدون عجل.. مِنْ سَبْ يكون العمل حالي.. وبعدا أمّي موجودة في البيت.. والله الحافظ».

لا أدري، كيف وافق بسهولة. قلت لها إثر مغادرته: «لو سمحتوْ.. ممكن نْبِـرْ[1] القمر؟». قالت: «هو نهار. عاد القمر يجيء بعدا. وإذا ما تصدّقوْ تعالوْ إبـرْوْ من الطاقة».

«أشتي أبير القمر الحالي.. القمر القمر.. مُش القمر الثاني». راحت، وكأنّها لم تفهم: «يوووه.. هو في قمرين؟».

«لا.. في قمر واحد.. قمر واحد بس، اسمه فاطمة».

ضحكت بغنج اشتقت إليه كثيراً، وأزاحت اللثام عن وجهها: «ها.. أعجبتك؟»

لا تعمل شيئاً يخالف ضميرها. سألتها مرّة: «لماذا أنتِ دائماً مبتهجة؟». قالت: «لأنّني لا أشعر بخطيئة في أي عمل أقوم به.. لا أخالف رغبة روحي وعقلي».

أجّلت العمل بعض الوقت، لأراها وأسأل عن أخبارها.

---

(١) نرى.

قالت: «تعرفني يا يهوديّ الحالي، أنا لا أكذب. حين أخبرت أبي بضرورة إصلاح الكسر في القمرية لم أهدف إلى اتخاذه عذراً لمقابلتك. تذكُر ما قاله ابن حزم في «طوق الحمامة» بأنّه يمكن أن ينسى أيّة زلّة أو خطيئة من قبل الآخرين إلاّ الكذب».
بعد صمت تفحّصَت فيه وجهي، أضافت: «الكنها عيون الوحشة. لم أكتشف الكسر القديم وفتحته المغطاة بقطعة من القماش إلاّ حين افتقدتك، وزادت رغبتي برؤيتك».

أخبرتني عن الراغبين الجدد في الزواج منها، وعدم قبولها، وعن الكتب التي قرأتها خلال هذه الشهور. حدّثتها عن موت أخي، وعملي مع أبي، وعن المؤذن صالح، وأسعد، وكيف أقضي وقتي في تذكّرها واستذكار الشعر العربي.

حين صَحَتْ أمّها من نوم عميق، وجاءت تجلس معنا في الديوان، عرفت أنني تأخرت كثيراً. كان عليّ أن أسرع في إنجاز العمل.

قالت لي، وأنا أغادر منزلهم: «في المرّة القادمة سأعطيك بعض الكتب بالعربية.. وأنت تعطيني كتباً بالعبرية». فرحت بهذا الاقتراح، ولم يعد لديّ أيّ حلم إلاّ لقاؤها القادم.

- ٩ -

مرّت أشهر وأيّام. خلالها تعرّفت إلى حاييم عن قرب. سمعتُ اغانيه، ورأيته في أماكن كثيرة، لكنني لم أكن قد تحدثت إليه.

كان أشهر سكّير في ريدة، كما هو أشهر مغنٍّ فيها وفي المناطق المجاورة. «وصلت شهرته إلى صنعاء وجبل صبر وعدن» حسب قول أبي، الذي أضاف، حين رآه يقترب منّا، في ذلك الصباح: «منذ عرفته قبل أكثر من ثلاثين عاماً، وأنا لا أراه إلاّ سكران».

«عجّز، وعمره لا يتجاوز الخمسين إلاّ بسنتين أو ثلاث» قال أسعد.

حيّانا غناء بالعبرية:

«صباح الصباخ
للفتيان الملاخ
مَن يهجوا القلب
ولا يقولوا آخ»

خرج جارنا قاسم أبو حسين من محلّه انجذاباً إلى الصوت. أعاد حاييم الأغنية باللحن نفسه، ولكن باللغة العربية هذه المرّة.

مرّر نظره علينا جميعاً، وكان قد التفّ حوله عدد من العابرين والجيران. قال: «كيف النّاس؟»، وهي تحيّته، أو سؤاله عن الأحوال، التي عُرف بها.

راح الحضور يحيّونه، لكنّهم سرعان ما تفرّقوا حين رأوه يفتح كيسه الجلدي ويُخرج منه قربة نبيذ. شرب منها عدّة جرعات.

«هي عادته بعد كل غناء» قال أسعد.

التفت إليّ، ثمّ إلى أبي: «هذا ابنك.. معقول؟».

«نعم، ابني.. عنده صوت حالي، لو تسمعه.. لكن، ما أشتيش يطلع مغنّي».

«لِلْمَه؟» سأل حاييم، ولم يسمع إجابة.

ربّما لم يعجب أبي نموذج المغنّي السكّير الذي أمامه، لكنّه لا يريد قول ذلك؛ يعرف جمال صوتي من أدائي للأدعية والصلوات، فقط.

فاطمة تعرف أنني أجيد الغناء وكذلك أمّي. أخي ظلّ يرفض الإنصات للأغاني العربية، حتى توفي.

بقي حاييم يحدّق فيّ، ورأيت عينيه تقولان لي: غنّ.

«هل تريدني أن أسمعك فنّاً يهودياً أم فنّاً عربيّاً؟».

انتبه سريعاً، وكأنني طيّرت سكرته: «اسمع، لا يوجد شيء اسمه فن يهودي، أو فن عربي. يوجد فنّ فقط، فن أو لا فن».

احترتُ، ماذا أغنّي؟ مرّت في بالي أغانٍ كثيرة. أردتُ إدهاشه وهو يسمعني لأوّل مرّة:

«عقلي ارتبش لمّا خطر قُبالي
وهدّ عُمري ونحل عظامي

ياغارتاه بالله ارحموا لحالي
قولوا له يجلس ستة قُبالي

بالله ارحموا قلبي المولّع
لحق وراه ما عد قدر يرجع

حُبيّبه من عائلة محمد
لو أقرُبِه أعيش معِه مُمجّد

إنْ متْ ياهْلَ الله سامحوني
وَجَنْبِهِ بالأرض اقبروني

القوا السلام كما السلام لله
يهودي عشق مثل خلقة الله»

بلغت النشوة أقصاها، كما يبدو، عند حاييم. قفز من مكانه وراح يُقبّل هامة رأسي ووجهي. قال: «يسلم فمك الحلو هذا»، وقبّلني فيه، حتى ذقت طعم النبيذ الذي كان يخرج من فمه لُعاباً، ومن جسده ندى. منذ ذلك اليوم صرت أتخيّله وأراه جرّة نبيذ يخرج منها الغِناء والشعر والبهجة.

سألني: «من شاعر هذه الكلمات؟». ارتبكت، وكنت قد أحسست بجرأة كلماتها، وأنا أغنّيها بحضور أسعد. يغضبه أيّ تقرّب إلى المسلمين، فكيف إذا بلغ هذا التقرب حد الغزل والوله ببناتهم من عاشق يهودي. أبي ليس لديه الكراهية نفسها، بل لم يعد يحمل أيّة كراهية ضد المسلمين منذ مجيء فاطمة إلى بيتنا.

فجأة تذكّرت اسم الشاعر والمتصوّف اليهودي سالم الشبزي، سمعت كثيراً أن المسلمين يتقاسمون حُبّهم له مع اليهود.

«إنها قصيدة للشبزي».

«لا، ليست للشبزي. أعرف كل قصائده، حتى تلك التي كتبها قبل أيام». ردّ مستغرباً، ولم يدع ارتباكي يدوم طويلاً، أضاف: «إنّها لك.. ياشيطان.. تخفي عني.. شاعر وفنّان.. ما أحلاك؟».

ضحكت لأبتعد عن مواصلة النقاش حول من هو كاتب القصيدة. قال حاييم إنّ مستقبلي سيكون عظيماً في الشعر

والغناء، حتى وإن لم يرض أبي. ظل يحدّثني عن أصوات الغناء، وخصائصها. لكنّ صالح المؤذّن لم يتح له المزيد، فحين وصل أعاد سؤاله المعتاد: «متى سترحلون من بلاد العرب؟». التفت إليه أسعد بغضب بدون أن يتكلم، التفاتة بدت واضحة المعنى لدى المؤذّن، فرفع صوته: «أيوه، ارحلوا من بلادنا.. وإلاّ سنرمي بكم في البحر». ظلّ يحرّك يديه وعينيه بانفعال: «البحر، ما بش غيره.. سنرمي بكم في البحر».

كان أسعد قد انفعل، أيضاً: «لِلْمَه، ترموا بنا في البحر.. سنسير بلادنا أورشليم؟».

«أورشليم.. هه؟ القدس مش حق أبوكم، هي حق المسلمين» ردّ بغضب، متجاوزاً ما قاله في المرّة السابقة بأنّ على اليهود الرحيل إلى القدس، أو إلى الجحيم.

حاول أسعد، كما بدا، تجنُّب فتنة على وشك الحصول. خفض صوته: «اسمعني، أعزّ الله قدرك، أورشليم، تعرف أنها مدينة إبراهيم وداود وسليمان، وفيها جبل الهيكل. دمّرها نبوخذنصر، وتمّت إعادة بنائها. منحها الرب يهوه لبني إسرائيل، شعبه المقدّس، الذي اختاره من بين جميع شعوب الأرض. هذا ما جاء في أسفارنا المقدّسة».

قاطعه المؤذن: «اسمع.. اسمع.. أنتم حرّفتم كتاب التوراة المنزل من الله على موسى. القدس هي إحدى القبلتين، منها عُرج إلى السماء برسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم،

خاتم الأنبياء، ونبيّ الإسلام، الدين الحق، فيها المسجد الأقصى ثالث الحرمين، وقبّة الصخرة، ومنارة إبراهيم، ومصلّى جبريل، ومصلّى الخضر، وقد لعنكم الله، لعنة لله عليكم»

واصل أسعد كبح توتره إلاّ أنه لم يصمت: «من أين جاء اليهود، ألم يخلقهم الله.. أنت سيّد العارفين، وتعرف حكايات اليهود مع يعقوب وموسى وهارون ويشوع، وما جرى لهم في مصر، ومع ملكي أشور وبابل و....»

بدا حاييم وكأنّه يتهيّأ للغناء.

«اسكت لعنة الله عليك» صرخ المؤذّن فيه، قبل أن ينهي لحن كلمته الأولى «الحُـ..»، التي، ربّما، أرادها أن تكون «الحب». التفت منفعلاً إلى أسعد، وكأنّ فكرة الغناء هيّجته أكثر: «الكلام الذي تقوله غلط، وغير صحيح. هذه أساطير الأوّلين، كما قال الله تعالى في القرآن الكريم».

تكدّر مزاج حاييم، حين وجد محاولته تهدئة النقاش المتوتر بالغناء لم تفلح. حاولت رفع صوتي، على طريقته، ولكن بتراتيل مختلفة: «وإذْ قال موسى لقومه، يا قومي اذكروا نعمة الله عليكم إذْ جعل فيكم أنبياء وجعلكم مُلوكاً وآتاكم ما لم يُؤتِ أحداً من العالمين. يا قومي ادخلوا الأرض المقدّسة التي كتب الله لكم، ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين. قالوا: يا موسى إنّ فيها قوماً جبّارين، وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون

أنعمَ اللهُ عليهما: ادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنّكم غالبون، وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين. قالوا: يا موسى إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربُّك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون. قال ربِّ إنّي لا أملِكُ إلاّ نفسي وأخي، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين. قال: فإنّها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين».

«هذا قرآن كريم، من سورة المائدة»، قال المؤذّن، الذي لم يكن أمامه سوى الصمت، وهو يسمع الآيات مرتّلة بصوتي، بطريقة بدا أنّه لم يألفها. حتى أنّ جارنا قاسم أبو حسين عاد سريعاً وملهوفاً: «ما شاء الله.. بارك الله فيك.. وحفظ صوتك».

حاييم عبّر عن إعجابه بالمثل. يمكن القول إنّه يفصل بين جمال الصوت وإعجابه به، وبين صاحبه! هكذا بدت علاقته بصالح المؤذّن وبصوته.

هدأت انفعالاته بعد سماعه، تمتم: «يهودي ويرتّل القرآن.. كيف هذا؟!»

قال أسعد: «افهموا القرآن، حين يقول إنّ الله كتب الأرض المقدسة لقوم موسى، وإنّه لم يحرّمها عليهم سوى أربعين سنة يتيهون فيها على الأرض عقاباً لهم لعدم مصارعتهم القوم الجبّارين الذين كانوا فيها».

«هذا تفسيرك اللعين للقرآن»، أجاب المؤذن.

أسعد بقي يصرّ: «أعطني تفسيراً آخر لو في عندك.. من ثلاثين سنة، وأنا أحفظ ما يقوله المسلمون في كتب تفسير القرآن والتاريخ عن هذه الآيات. فالأرض المقدّسة التي كتبها الله لبني إسرائيل وجعلها سكناً لهم، اختُلِف فيها، فقال قتادة: هي الشام كلّها. وقال مجاهد: الطور وما حوله. وقال ابن عباس والسدي وعكرمة وابن يزيد: أريحا. وقال الزجّاج والكلبي: دمشق وفلسطين وبعض الأردنّ. وقال الضحّاك: هي إيليا وبيت المقدس. هذه أقوال أوردها الثعلبي وغيره، وإلاّ قُلْ إنّه تفسير يهودي. هل هؤلاء من اليهود أم مسلمون؟ بدون هذا فسّر لي من الآية، قد هو كلام واضح. وإلاّ ارجع لكتب التاريخ. ارجع فقط إلى المقبور هنا، في ريدة، ابن الحائك الهمداني، إلى كتابه (الإكليل)، حين تحدث عن هذه البلدات، عن القدس وإيليا، وسوريا، وسكّانها وأصحابها».

اندهشت لكلامه. لم أظن أنّه سيفهم قصدي من تلاوة الآيات القرآنية، بل لم أعرف أنّ له معرفة بالقرآن وبالكتب العربية. لقد ظل يعترض دائماً على قراءتي لها.

قال المؤذن: «اسمع، أنا أوافقك أن هذه الآراء موجودة في كتب التفاسير، وقد قالوا إنّ الأرض المقدسة محرّم دخولها على بني إسرائيل أربعين سنة، لا زيادة عليها، فلا يخالف هذا التحريم ما تقدّم من قوله تعالى (التي كتب الله لكم)، فإنّها مكتوبة لمن بقي منهم بعد هذه المدّة، وقيل إنّه لم يدخلها أحد

ممن قال (إنّا لن ندخلها) فيكون توقيت التحريم بهذه المدّة باعتبار السماح لأبنائهم بعدهم، ولكن، اسمع.. . .».

بدا وكأنّه يحاول إعطاء الجواب الأخير. قال بعد صمت: «اسمع هداك الله، قوله تعال: (فإنّها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض)، فقد قيل إن (أربعين سنة) ظرف لقوله (يتيهون في الأرض) أي يتيهون هذا المقدار، فيكون التحريم مطلقاً. والمؤقت: هو التيه، وهو في اللغة الحيرة.. فهمت والآ . . . .».

«أليس لليهود وطن غير البحر، يغرقون فيه؟». بقيت أسأل نفسي وأنا أستعيد كلام المؤذّن.

أسعد الذي بدأت أكتشف ملامح أخرى له، شعر بهواجسي القلقة: «لا يفجعك كلامه.. اليهود لن يسكنوا أورشليم فقط، بل سيسيطرون على كل الدنيا. عندما يظهر المسيح المخلّص سنحكم في أورشليم، آح.. آح..». تنهد وأضاف: «سيجلس اليهودي الأصيل، اليهودي ابن اليهودي، ولا أحد غيره، على كرسي المُلك في أورشليم، وسيأمر بإبادة كلّ الأعداء.. هذه إرادة الرّب».

«وهل ستكون فاطمة معهم، أيضاً؟» أردت سؤاله، لكنني لم أجرؤ. مضيت بعد أن أشعرته بتفهّمي لمقاصده، مع أنّ أسئلة حادّة ظلّت تؤرّقني، خاصّة أثناء رجوعي ليلاً من تلبية دعوة حاييم إلى منزله، أو كهفه، كما يسمّيه.

لم تكن الليلة الوحيدة التي ذهبت فيها إلى حيث يعيش بلا أهل ووحيداً. لياليَ كثيرة بعدها، ذهبت فيها لأسمعه وأشاركه النبيذ. كان أبي لا يسرّه ذلك. يزجرني لأكفّ عن زيارته، بعذر أنني ما زلت صغيراً على الشراب. في إحدى الليالي الربيعية، حدّثني حاييم عن نشوء أورشليم وتاريخها، وتبعيتها في أزمنة مختلفة لحكم آشور وبابل وفارس وروما، وعن تقديس عدد من الشعوب والديانات لبعض الأماكن فيها، ومنها المسيحية، ونظرة كل من اليهود والمسلمين إليها.

ليلتها ظلّت الأمطار تهطل بلا انقطاع فمكثت إلى وقت متأخر. حين اقتربت من بيتنا وجدت منزلاً مهدّماً أمامي. ظننت أنني شربت كثيراً فأخطأت العنوان. بعد أن أدركت وجودي، وفُتح لي الباب، قالت أمي: «السيل هدّم بيت أسعد بالكامل.. هم الآن عندنا، زوجته مع بناته الأربع.. هو راح عند زوجته الثانية».

«صبا هنا، عندنا» قلت. لكنني سرعان ما تنبّهت إلى أنني بدوت وكأني لم أهتم بما جرى. فرحت بوجود صبا، فقط، ربّما بأثر من النبيذ. تداركت: «ياه.. يا للمصيبة.. تهدّم البيت كلّه.. المهم كلّهم بخير، لم يصابوا».

«أصيبت زوجته بالرأس، وكُسرت رجلها اليسرى من الحجارة الواقعة فوقها.. البنات كلّهن أصبن بالرؤوس وفي الأيدي والأرجل.. أبوهن كان غير موجود».

جميعهن كُنّ في غرفة واحدة. فتحتُ جانباً من درفة الباب.
قالت أمّي: «اتركهنّ يرقدن، هنّ نائمات.. مُتْعَبات كثيراً».

لحظتها، جاء صوت صبا: «ماذا يا عمّتي.. هل في شيء؟».

أرادت أمّي أن تجيبها بالنفي، إلاّ أنّني قاطعتها، وأنا أدخل إليهن: «سلامتكم من كلّ مكروه.. سلامتكم والعافية لكم».

«عافاك.. قدّر الله وحّفظ وصان»، قالت صبا وهي تنهض لتجلس على الفرش.

إلى جوارها، وعلى بساط عريض، تنام أخواتها الثلاث، وأمّها التي بدت في نوم عميق. أختها نشوة ظلّت تتحرك، إلاّ أنّها لم تنهض. ربّما كانت تستعيد كابوس الحادثة في أحلامها. أما سحر وورده اللتان لا يتجاوز عمراهما السادسة والرابعة، فكانتا تنامان في وضعين مختلفين؛ إحداهن نامت عرضياً، واضعة رأسها على فخذ أمّها ورجليها فوق أختها نشوة، والثانية تحوّل رأسها إلى أسفل، عكس رؤوس الأخريات. جميعهن كُنّ معصّبات رؤوسهنّ من الجروح.

قالت أمّي: «هل تحتاج أي شيء.. أبوك قد هو نائم.. وأنت روح نوم في السقيفة، الأعراس[1] في الزنبيل إذا أنت جائع».

---

(١) الخبز.

«في السقيفة..؟ أنا أخاف وحدي». قلت لها ضاحكاً.

«هه.. أين ستروح؟ ما عد بش مكان إلاّ إذا أنت ستنام عندنا، أنا وأبوك».

غمزتُ بعيني: «كيف نجيء عندكم.. ما يَنْبِزش نناغطكم[1] إذا توحّشت سأنام هنا جنب الباب». قالت: «ما يجوز تضايقهم».

ردّت صبا هذه المرّة: «ما بش مضايقة يا عمّتي. إحنا اللي غلّبناكم معنا».

«يرووه يا بنتي.. ما هو؟ ما تقولي؟ إجو[2] اسكنوا في عيوننا.. المصيبة اليوم عندكم وغدوة عندنا.. الله ينجينا.. أنا عَدْ اروح انام».

والتفتت إليّ، قبل أن تخرج: «وأنت.. شوف خراجك؟»

«ما يهمّكش.. ما يهمّكش» أجبت.

أشرتُ إلى الفراش الذي تجلس عليه صبا: «هه.. هذا فراشي». ضحكتُ، كما ضحكت هي. لكنّني أحسست فجأة أنني أمام مصيبة مهولة يحتاج أصحابها إلى المواساة والتضميد، وليس إلى الضحك، واللامبالاة، اللذين ظهرا عندي بأثر من النبيذ.

مسكتُ يدها المربوط عَضُدها بضمادات: «يرووه.. بِه

---

(١) لا يجوز أن نشغلكم عن مهامكم.

(٢) تعالوا.

كُسر هانا». قالت: «هو جرح بس. . راسي هو اللي يوجعني. . خرج منه دم كثير».

تحسستُ يدها، انفعلتُ ورحت أُقبّلُ أصابعها. رأيتها فاتنة بشكل لم أرها فيه من قبل. نشوة تكبرني بأربع سنوات، حسب ما تقول أمّي، مليحة الوجه ولها عينان واسعتان، إلاّ أنها، وقد اشتهرت بالعصبيّة والمواقف الحادة، كانت نحيلة الجسم ولا شيء يملأ صدرها. على عكسها، لا تبدو الملاحة على وجه صبا، التي تكبرني بسنتين، ومع ذلك تطفح الأنوثة من كلّ أعضاء جسدها الممتلئ. نهداها يبدوان داخل فستانها المزركش كعصفورين يتعاركان مع القفص الذي يحتويهما، رغبة في الخروج منه والطيران. أردتُ لمسهما؛ أسأل إذا لم يصبهما أذى.

مسكتُ راسها لأرى الجرح. لا أدري لماذا شعرتُ تجاهها، في تلك اللحظة، بانجذاب كبير. أحسستُ أن جرحها كبير ومؤلم، إذ بدأت تتأوّه، وهي تُحَرّك راسها نحوي لأرى.

احتضنت رأسها بيدي، ورحتُ أقبّل جبهتها، أردد: «سلامتك من الألم. . عافيتك هي الأهم». بجانب الجرح غرست أنفي. شممتُ بقايا نكهة دم. مددت رجليّ إلى جوارها، وحنيتها فوق فخذيّ. مررتُ أصابعي بين شعرها. كان رأسها ممتلئاً بالكدمات. صاحت أكثر من مرّة : «آح. . آح». رأيتُ أهمّية القيام بمواساتها. بقيتُ أمسح براحة يدي وجهها،

وادلّك رقبتها. تمايلت وتحرّكت مُطاوعة لحركة يديّ، حتى صارت كتفاها فوق وسطي، وكادت تلامس صدري بنهديها.

فجأة، رحتُ أبكي، وأنا أضمّ كتفيها ونهديها إلى صدري. لا أجد أي تفسير لذلك النشيج الذي انتابني حينها.

مددت ذراعي إلى ظهرها، ورحتُ أضمّها بقوّة. كانت أوّل مرّة أعانق فيها أنثى بالتياع، على ذلك النحو. حاولتْ أن تمددني إلى جوارها: «استرخِ.. حاول تهدأ». لكنّ نشيجي لم يتوقّف وإن ظلّ خافتاً. ضمّت كلّ جسدي حين استلقيت بجوارها. احتوت رجليّ بين فخذيها، وظلّت تضغط بهما عليّ. كما شدّتني من ظهري بيدها اليسرى، وبالأخرى جذبت رأسي بقوّة إلى صدرها.

قوّة الجذب والشدّ والضغط من قِبلها، قلّلت من تصاعد نهنهاتي، وعلوّ نشيجي.

في الصباح وجدتني مُستلقياً بالقرب من الباب. ليس بعيداً عن صبا. تذكّرت بصعوبة ما جرى في الليل؛ إلى لحظة احتواء جسدي تماماً، قبل أن أمضي في غيبوبة سُكر صحوت منها، وكأنّني لم أكن.

وأنا أستعد للتوجه إلى العمل، سمعت أسعد الذي جاء إلى منزلنا، باكراً، ليتفقّد أسرته، يتحدّث بصوت عال: «والله، سأقتلك يوم أسمع أنّكِ تُقابلي ابن المؤذن.. وإلاّ تحسبي الأمر سهلاً لمّا يقول سيتزوّجك؟». ويبدو أنّ زوجته أشعرته بأنّه في

بيت غير بيته، إذ خفض صوته، ولم أعد أسمع ما يقوله، في الغرفة التي انفرد فيها مع أسرته.

لا أعرف مَنْ مِن بناته تولّهت بابن المؤذّن. ظنّي قال لي إنّها صبا. هي الأكثر ولعاً وشبقاً بالحياة.

انتبهت إلى ما لحق بهذه الأسرة من كارثة، وأنا أرى في ضوء النهار بيتهم ذا الطابق الواحد وقد تهدّم تماماً.

أسعد الذي خرج بعدي بلحظات، بدا حزيناً وهو يحدثني، بلهجة غير تلك التي خاطب بها ابنته: «نحن لا نستطيع بناء بيوت على أساس متين، لأنّهم لا يسمحون لنا بأن نبني أكثر من طابق أو طابقين، على الأكثر، وعلى شرط، أيضاً، ألاّ تنافس بيوتهم أو تفوقها.. فماذا نعمل؟ بيوتنا إذا لم يقتلعها السيل من أسسها السفلى يهدّمها المطر، وتعصف بها الريح من الأعلى».

لم يُتح لي الفرصة لأستوضحه. أضاف وهو يمضي: «هذه ليست بيوتنا حتى نهتمّ بها. إنّها بيوت للريح.. متى ما شاءت أخذتها، وأخذتنا إذا أرادت معها».

عندما وصلت إلى المحل، وجدت امرأة شابة تجلس في بابه. تعرّفت إليها سريعاً، إذ لا حجاب يُغطّي وجهها. قال أبي: «نفحة المزيّنة، معها رسالة لك من بيت المفتي، رفضت تسليمها إلاّ إلى يدك»؟

مددت يدي لأتناولها. قالت: «يقولوْ لكم بيت المفتي اقراوْ هذي.. ورَدّوْ بجوابكم.. وأنا شرجع مِنْ سَبْ أوصّله».

فوجئت بما أراه من خطّ جميل بالعبرية، كُتب على ظهر الرسالة المطويّة بعناية. «إنّه خطّها» قلت لنفسي، وأنا أقرأ أولى الكلمات: «إلى اليهودي الحالي». ارتبكت إذْ أدركت أنّها رسالة منها. قلتُ لأبي: «هذي مكاتيب شرعية بالعبرية، نسيتها أيام القراءة.. شاسير إلى البيت أضعها هناك مِنْ سَبْ ما تتوسخ». وافق بعد أن لمح الخطوط العبرية من بعيد، فصدّق ما قلته.

اكتشفت، وأنا أبتعد عن المحل، أن الرسالة مكتوبة بالعبرية أولاً، ثم بالعربية. لم أنتظر حتى أصل إلى البيت، ورحتُ أقرأ وأنا أمشي:

«إلى اليهودي الحالي

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سائر الأنبياء والمرسلين، والطيّبات والطيّبين.

حفظكم الله من الضياع، وجنّبكم وحشة الغياب، وأرشد إلى طريق الخير خُطاكم، وفتح على آمال الحياة قلوبكم وأذهانكم.

أمّا بعد، فمع وحشة الفراق يصبح البوح والمداد هما الترياق. ولا ينجو اللبيب إلاّ بتذكّر الحبيب.

وعليه فأنا أكتب إليك مبتدئة بالسؤال عن صحتك وأحوالك، ومهنئة لك بأعيادنا وأعيادك. وأسأل الله لك ولكل اليهود والمسلمين، وكذلك لأتباع جميع المِلل والنِحل، ومَن لا ملّة له، سلامة الأيّام وبهجة الدهر.

وخلاصة الكلام وبغية القول والمراد، أنني أدعوكم إلى إيضاح النقش المرسوم على جدار ديوان بيتنا، والذي دخل النمل من أطرافه ووسطه، عبر فتحات صغيرة لمساكنه القديمة. ولأنه قد غيّر الاتجاه، واستقرّ في ما رأى أنه مباح، خطرت في البال فكرة الإيضاح. والاستفادة مما استغنى عنه النمل في المعاش. فإذا تفضلتم بكتابكم إلينا، مع السيدة المُتفضّلة علينا، حدّدوا اليوم الذي ستشرفوننا فيه بطلعتكم، وعطفكم، حتى نعلم القدوم، ونستقبلكم بالود والسرور. وشوقنا إليكم معروف، ولا يتطلّب منّا كثرة الوضوح.

والسلام في الختام، أهديه على كل حال، في الصحو والمنام».

حين وصلت إلى البيت كنتُ قد قرأت الرسالة بنصها العربي أربع مرّات أو أكثر، فيما قرأتها مرّة واحدة بالعبرية. لم أستطع تركها. وضعتها بقطعة من القماش، ثمّ ربطتها بتِكة سروال قديمة لأمّي، وشددتها على خصري تحت ملابسي.

كانت قد مضت تسعة أشهر منذ التقينا آخر مرّة، وها هي أيّام كثيرة تمضي، لا ينشغل بالي فيها إلاّ بهذه الرسالة، بكلماتها ومعانيها. كلّما أُتيحت لي الفرصة، في البيت أو المحل أو الشارع، أخرجها من مخبئها، وأعاود قراءتها. صرتُ أحفظُ كلّ حرف فيها إلاّ أنّ بالي لا يرتاح إلاّ إذا قرأتها بخط فاطمة.

لم أعد ألتفت إلى النقاشات التي زادت حدّتها بين المؤذن

واسعد. رسالتها أخذت كل وقتي وتفكيري. عادة ما أمضي أفكّر فيها بصوت مسموع، أو خافت، أو حتى بصوت صامت، أسمع صخبه عالياً فيّ. تُذكّرني كلماتها عن مساكن النمل بموقفها من عدم إبادة أي كائن حيّ. فاطمة قالت: «إيضاح النقش المرسوم»، ولم تقل «إصلاح». فالنمل لم يقم بشيء خطأ، أو عبث كي (نصلحه). إنّه سلام فاطمة، حتى في اللغة. وأنا لن أقوم بهذا «الإيضاح» إلاّ لأنّ النمل غيّر مساكنه وطُرقه القديمة، موضع هذا الإيضاح، واستغنى عنها.

بقيت مهووساً، أو ما يشبه المهووس، بكلماتها. لقد شدّتني إلى الحياة، حياة لن تكون جميلة إلاّ مع الآخرين، بما فيهم النمل.

كنتُ قد بدأت أخاف على عقلي أن يسرح، من شدّة الجهد، خارج السرب، أو يذهب بعيداً، حيث لا رجعة؛ لولا ما حصل أثناء ذلك من حدث مروّع، صار خبره وتفاصيله على كلّ لسان. فقد وُجد قاسم ابن الحاج صالح المؤذن منتحراً تحت شجرة في الوادي، وبجواره ترقد نشوة ابنة أسعد، بدون حراك.

«انتحرا بسبب رفض أسرتيهما فكرة زواجهما»، كان هذا أوّل تبرير، لما قاما به، انتشر بين الجميع.

بالنسبة إليّ، لم أصدّق أنها نشوة، بقيت أؤكّد أنها صبا، ولم أتراجع إلاّ حين رأيت صبا تندب أختها، أمام بيتهم الذي أعادوا بناءه بمساعدة معظم شباب الحي اليهودي.

ترددت أقوال كثيرة، قيل إن الأسحار المعمولة من شمعون لهما، بطلب من طرفٍ ثالث ضاق بالمخاصمات اليومية بين المؤذن وأسعد، هي التي أودت بهما.

قيل، أيضاً، إنّهما فضّلا الانتحار بعد أن كاد أمرهما يفتضح، لتنفذ فيهما عقوبة الزنى. تحدثوا عن علاقتهما منذ بدأت بتبادل العطر والفُلّ، حتى انتهت بتمازج العرق واللحم.

ومع هول ما حصل بدأوا يتهامسون عن علاقة حميمة أخرى ناشئة بين صبا، الابنة الثانية لأسعد، وعلي، أخي قاسم، ابن المؤذن نفسه.

- ١٠ -

سبعة أشهر مرّت منذ تسلّمت رسالة فاطمة، كنتُ قد أجبت عليها في اليوم الذي تلقيتها فيه. ظننتُ أنّ المزيّنة ستعود في اليوم التالي لأخذ الجواب. لكنها، لم تعد إلاّ بعد مرور هذا الوقت.

قبل ان تأتي لتأخذها بيومين، أعدتُ كتابتها من جديد، لشدّة تعطّفها، ومحو بعض حروفها بقطرات العرق التي اخترقت كيسها الحريري.

كتبتها، طبعاً، بالعربية التي أحبّها:

«باسمك أبدأ،

وبه أنتهي.

أمّا بعد، فيا سيّدة الجمال والكمال، وخلاصة النساء والرجال، فرحتُ بوصول مكتوبك فرحة الولهان الذي شمّ فجأة رائحة من الجنّة، أو عطر الريحان. فشكراً لحنان أصابعك التي سطّرت حروف الحب والسلام، ونثرت عليها نقاط الرحمة والسلوان.

شكراً لإلهك إذْ وهب لنا من رحمته اسمك، وأظهر لنا من صورته صفاتك.

ونحن لولا آيتك لنا في أن نبقى أحراراً لكنّا بين يديك خاضعين، ولمشيئتك طائعين، وليس لغيرك متجهين. فلم نعرف من الحبّ والحبيب إلاّ حبّك، ومن الودّ والودود إلاّ ودّك، ومن الرحمة والرحيم سوى رحمتك، ومن السلم والسلام غير كلماتك، ومن الإسلام إلاّ مذهبك. ولم نعرف من الله سواكِ أنتِ.

وأمّا بشأن تشريفك لنا بالقيام بإيضاح النقش المرسوم في ديوانكم الكريم، فعلى رأسي ومن عيني، سأجيء إليكم عصر الجمعة التالي لليوم الذي يصلكِ فيه مكتوبي هذا.

أدام قدركِ وأعزّ مطلبك، وأطفأ أشواقي بقربك وعطفك.
والسلام في الختام من يهوديّك الذي لا ينام، شوقاً وغراماً».

لا أمتلك قدرة فاطمة على التعبير، فأنا يهودي ابن يهودي، ولولاها لما تعلّمت اللغة العربية.

ذهبتُ في اليوم المُحدّد نفسه. فتحت لي الباب في اللحظة التي مددت فيها يدي لأدقّه، وكأنّها كانت تتّبع وقع خطواتي منذ أن اتجهت إليها. أنا الذي صرت أدرك أنّ كل خطوات عمري، لم يعد لها وجهة أخرى سواها، وإن بدت متعددة الطرق.

سعدتُ إذ رأيت وجهها هذه المرّة بابتسامته وخجله اللذيذ. قالت: «تكتب: باسمكِ أبداً.. هه؟ شكراً على كلّ حال». لقد

قرأت الكلمة «باسمكِ» بالكسرة، وهو ما عنيته، إذ باسم فاطمة أبدأ وبه أنتهي. اكتفيت بالضحك، فهي لم تظهر أنها «زعلانه» لتجاوزي المألوف. أدخلتني إلى الديوان بكلماتها المعتادة: «تفضّلوا. . تفضّلوا»، وراحت تنادي أباها: «أباه. . أباه. . سالم اليهوديّ وصل».

جلستُ في أسفل الديوان. «أتمنّى لو أبقى متهجّداً أمامها طوال العمر» قلت لنفسي، فيما أشرق عليّ وجهها من جديد: «أبي راح في نوم عميق، هو لا ينام في مثل هذا الوقت، لكنّه اليوم تعب، فقد زار في الصباح أخواته الثلاث في بيوتهن. يقول لك : أهلاً وسهلاً، وأنكم ابن البيت، و سيصحو بعد ما تكمِلوا ليعطيكم الأجرة».

«هو يدري من قبل أنني ساجيء؟»

«استأذنته عندما كتبت لكم الرسالة. قلت له: سأرسل نفحة لتدعوك لإيضاح النقش، فلم يمانع. وقلتُ له أمس أنك قد تجيء اليوم. فقال: أهلاً وسهلاً، ولكنْ، قل لي. . . .»، ولم تكمل جملتها؛ التفتت إليّ، وهي تفتح عينيها على اتساعهما، لتريني أنها غاضبة منّي.

«لكن، ماذا. .؟»

«طوال هذه المدّة وأنت لا تجيب على رسالتي. . نسيتني يا يهوديّ الحالي؟»، وبدت بكلماتها الأخيرة معاتبة أكثر ممّا هي غاضبة.

«أتغضب امرأة مثل فاطمة؟»، تساءلت صامتاً، وقلت: «لقد كتبت إليك الجواب في اليوم نفسه.. لكن نفحة لم تجىء لأخذه، كما وعدتني، إلاّ يوم الثلاثاء الماضي».

«كيف هذا.. معقول تكون قد كذبت.. قالت لي إنّها جاءت إليك ولم تجدك في المحل. ومرّة قالت لي إنّك طلبت منها العودة بعد أسبوعين، والمرّة الثالثة قالت لي أن ليس عندك أي جواب».

«معقول؟، أنا أقول مثل هذا؟»

«أنا قلت هذا لنفسي، إلاّ أنّي لم أتبع ظنّي بتكذيب نفحة».

ناولتها كتابين الأول ألّفه يهوذا بن سليمان كوهين بالعبرية عن فلسفة ابن رشد، بعنوان: «طلب الحكمة». والثاني هو كتاب الشبزي الشعري «الشموس والأنوار» بالعبرية، أيضاً، حسب اتفاقنا السابق على تبادل الكتب. أما هي فأهدتني مجموعة من الكتب كانت قد رتّبتها في كيس.

أشارت إلى المساكن الجديدة التي اتخذها النمل بدلاً من الأولى. انتهزت الوقت لأقوم بإيضاح النقش. كان ذلك سهلاً، ولا يحتاج إلاّ إلى قليل من الجصّ المعجون لإعادته إلى هيئته الأولى عبر سدّ الفتحات والتهشّمات القليلة في دوائره وخطوطه، لكنّ القيام برسم مثل هذا الشكل، المشابه لنواة فاكهة الفرسك، بدا لي صعباً جدّاً، لدقّة خطوطه المتعرّجة والمنسابة طولاً وعرضاً.

«هل هو حِرز يقي ساكني البيت من الشياطين والسحر؟».

«لا أدري. هو من أيّام جدّي».

حين انتهيت، شعرت أنني مشبع بالمكافأة، ومتخم بالأجر، ولا حاجة بي إلى ما سأتلقّاه من المفتي مقابل ما عملت.

وجدت في الكيس الذي أعطتني إيّاه فاطمة أربعة كتب. بدأت أقرأ كتابين منها في وقت واحد، الأوّل «رسائل» لأبي بكر الرازي، والثاني لم يُدوّن عليه اسم المؤلّف بعنوان «الطبقات في شعراء اليهود الثقات»، يضمّ أخباراً وقصائد لشعراء يهود كتبوا بالعربية منذ العصور السابقة للإسلام إلى العصر العبّاسي.

- ١١ -

في الفترة التي تلت لقاءنا، مرّت أحداث كثيرة وصاخبة أمام عينيّ وعبرت في أذنيّ. لكن القليل منها، فقط، هو ما بقي في ذاكرتيْ بصري وسمعي. لقد أخذتني فاطمة إلى حال صفاء وبهاء.

أصبح ما يربطني باليهودية هو ما يربطني بقصائد الشبزي، وبأناشيد الحب وحكاياته في المزامير والأسفار، باليهود الذين لا أستطيع التخلّي عن صفتهم، بحاييم ومغنيي الأفراح، بشمعة وزوجها الجرادي ويعيش، برقصات ابنة شمعة، التي تغنّي، أحياناً، لكنّها لا تترك الرقص في أيّ فرصة تتاح لها. يقولون إنّها ترقص حتى في نومها. «ترقص نائمة» هي العبارة التي يقولها كل من يراها، حتى إذا كانت مقبلة إلى بيت عزاء أو جالسة فيه. «ترقص نائمة» يقولها الشخص للذي بجواره، أو يهمس بها لنفسه، كأنّه يذكر اسماً ما. صار اسمها هكذا، ولم يعد أحد يتذكّر أنّها قد سمّيت من قبل باسم آخر.

المؤذّن لم نعد نراه يمرّ من أمام محلّنا، بعد حادثة انتحار

ابنه قاسم مع نشوة. وأسعد صار منذ ذلك الحين بلا صوت. كلّما ذكرهما أحد، إذ بات لا يُذكر أحدهما إلاّ مع الآخر، قال: «نكّس الحدث رأسيهما». ظلّت هذه الكلمات تصف حاليهما مع تشعّب الحكايات واتساع الأقاويل عن المنتحرين، حتى أمكن سماع القول ونقيضه في الوقت نفسه. هذا الحال لم يدم طويلاً؛ فلم تمرّ سوى شهور قليلة حتى صار خبر مقتل الساحر شمعون حديث كل سكان ريدة والزائرين لها والعابرين منها.

قال أبي إنّه أشهر ساحر عند اليهود والمسلمين من ستين عاماً. تجاوز عمره الخامسة والثمانين ولم يكفّ عن عمل الأسحار.

«بأسحاره فرّق بين محبّين وجمع بين كارهين». أضافت أمّي مع لعناتها المعتادة في وجود سبب، أو بدونه.

صار من المؤكّد للجميع أن المؤذّن وأسعد هما اللذان قاما بقتله لاعتقادهما، كما كان يتردد، أنّه وراء انتحار نشوة وقاسم بأسحاره التي لم يستطيعا مقاومتها. اعترف الاثنان بذلك، وظلا يتباهيان به. بدا فعلهما وكأنه خروج لهما من محنتهما، بالأخص خروجهما من الخزي الذي لم يفارق شعورهما منذ اللحظة التي أُعلن فيها خبر الانتحار. لقد وحّدهما الشعور بالخزي أخيراً، كما لم يوحّد أي شيء غيره من قبل بين يهودي ومسلم في ريدة. مضيا بالشعور نفسه، إلى فعل غير مسبوق،

فقتلا من قتلاه، دون اعتبار لأصله أو دينه أو عمره. ربّما، لهذا لم تتم معاقبتهما كقاتلين.

كنت أعتقد أنّ الحب وشرب الخمر والنبيذ من بين ما يجمع بعض اليهود مع بعض المسلمين، لكنّ اعتقادي هذا، وقد أضفت إليه إمكانية توحّد هؤلاء في الشعور بالخزي، والقتل، أيضاً، سرعان ما داخلته الشكوك. فبعد أسبوع فقط من مقتل شمعون، عاد الخصمان إلى المواجهة من جديد. يومها داهم عدد من المسلمين الحيّ اليهودي، وقاموا بكسر كلّ جرار الأنبذة والخمور في البيوت، بما فيها بيتنا، حتى فاحت ريدة بروائحهما، بعد أن سكرت أرضها وداخت طيورها، فصمتت، كما صمت حاييم عن الغناء، إذ لم يجد ما يملأ به قربته، أو رأسه.

أصرّ المتضررون على رفع شكوى ضد المعتدين إلى عامل الإمام. قالوا على لسان أسعد، الذي أوكلوه للشكوى: «إنّ خسارتهم لا تعوّض، فالأنبذة المسفوحة كانت معتّقة، توارثوها عن أجدادهم، منذ مئات السنين، ولأنها كذلك ظلّت مطلوبة من صنعاء وعدن والمخا وأورشليم ومصر».

لم يقبل مكسّرو الجرار المساواة بالدعوى. حجّة المؤذّن، الذي واجه خصمه القديم، عند العامل: «أنّ اليهود أفسدوا المسلمين ببيعهم الخمور والأنبذة، بخاصّة الشباب منهم».

أكّد أسعد: أنهم ملتزمون بالقانون الذي يحرّم عليهم بيع

الخمر لغير أتباع ملّتهم. لكنّه قال: «نضطر أحياناً إلى ذلك، فبعض المسلمين يجيئون ليشتروا منّا الخمر أو نَهَبه مجّاناً. فإذا رفضنا إعطاءهم يقومون بتخريب ممتلكاتنا، وإذا اشتكينا عليهم لا ننجو من التخريب، أيضاً، وتظل شهادتهم هي المقبولة، ولو كانوا كاذبين».

تبادل الحجج الشرعية بين وكيلي الطرفين، لدى العامل والحاكم، صار محل جدل الكثير من اليهود والمسلمين، حتى كاد أن يُنسي ما أثاره مقتل الساحر العجوز.

وقف عامل الإمام إلى جانب اليهود في مطالبتهم بالتعويض، حسب الشريعة الإسلامية، على ما لحقهم من أضرار. وبعد مكاتبات كثيرة بين العامل، ومعه الحاكم، وبين الإمام في صنعاء جاء الحكم بالتعويض ممّا أفرح اليهود، وإن كان الذي خسروه، لا يمكن تعويضه، كما قال أسعد.

مع هذا، ظلّ وكيلهم يردد يومها: «إنّ عدم تفريطنا بحقّنا، ولو بحدود المسموح به، وتعاضدنا صفّاً واحداً في المطالبة بالتعويض منحنا جرعة معنوية، ما كنا لنشعر بها، حتى وإن شربنا كلّ الخمور والأنبذة التي سُفحت على الأرض».

لم ينته الحدث عند هذا الحد، وكانت خاتمته فضيحة لمن لم يتوقّعوها، فقد كُشفت أسماء من يترددون، هم أو رُسلهم، إلى حيّ اليهود لشراء الخمر، ولما كان معظمهم من عِلية القوم فقد أثار ذلك الكثير من الصخب. تهامس البعض قائلين إن

اليهود أرادوا بكشفهم هذا معاقبة الشاربين من المسلمين، الذين تملّكهم الجُبن ولم يقدموا على الدفاع عنهم والوقوف معهم في محنتهم.

لم تكن هناك ردود فعل لافتة على ما جرى من فضح، ومرّت أسابيع ساد فيها هدوء غير مسبوق. لكن، بعد شهر ونصف، فقط، من حادثة كسر الجرار، بدا لي أن الهدوء ليس من طبيعة الحيّ اليهودي، فبشائر الأخبار جاءت بوصول ثلاث يهوديات شهيرات إلى الحيّ. قالوا إنّهنّ جئن بعد أن هدّدهن فقهاء إسلاميون بالقتل إذا لم يرحلنَ من صنعاء. اتهموهنّ بإفساد أولاد المسلمين، وبناتهم، أيضاً.

كُنّ، كما تردّد، يقمن بمهنة القوادة، فيجمعن بين بعض المسلمين نساء ورجالاً، في بيت خُصّص لذلك، أو في بيوت هؤلاء المسلمين أنفسهم، مقابل أجرة يحصلن عليها.

وإذ سبقتهنّ أخبارهنّ إلى ريدة، فإن المسلمين، ولا سيما الشباب منهم، ظلّوا يترددون إلى الحيّ اليهودي بهدف رؤية هؤلاء النسوة، حتى قيل إن البعض جاء من مناطق بعيدة لهذا الغرض.

ضحكاتهن الموزّعة على كلّ قادم لرؤيتهن بدت أنّها ستكون سبباً كافياً لتأجيج الغيرة، ونشوب توتّر جديد بين شباب المِلّتين، وهو ما حصل بالفعل، بل إنّ أحداً لم يستغرب تطوّر تلك المناوشات الكلامية إلى معارك بين شباب المسلمين

أنفسهم، بعد ما رغب بعضهم أن ينفرد بواحدة منهن دون غيره، وكذلك كان حال شباب اليهود.

على الأرجح، كانت واحدة من بين الثلاث تفتن كلّ من رآها. لم تكن معاشرتها صعبة، لكن مَنْ تَحقق له ذلك لم يقتنع بتلك اللحظات التي تلذذ فيها ونال مبتغاه منها، فبات يريد الزواج منها. أحبّ امتلاكها إلى الأبد، أراد أن تكون له وحده، وهو ما لا يتوافق، كما صار واضحاً، مع مزاجها غير المحدود، ورغباتها الحرّة.

ما كان يحصل ليس سهلاً، ولهذا تخوّف الكثيرون من نشوب فتنة لا أوّل لها ولا آخر.

في غمرة تلك الأجواء المتوتّرة والأصوات الصاخبة التي تدور حولها، انتهيت من قراءة كتابين ، وبقيت محتاراً في اختيار ما سأقرأه بعدهما، من بقيّة الكتب المهداة من فاطمة، هل أقرأ «نهاية الأرب» للنويري، أم «ديوان الصبابة» لابن أبي حجلة؟. لكن حيرتي تلاشت، إذْ وجدت ما لم يكن بالحسبان، وما لم يتوقعه وينتبه إليه البال.

أثناء قراءتي لفهرسَي الكتابين، وتقليبي صفحاتهما لأختار ما سيروقني، أوّلاً، منهما، وجدت في «ديوان الصبابة»، تحديداً في باب «الرُّسل والرسائل والتلطّف في الوسائل»، رسالةً مزخرفة بخطٍّ جميل.

«إلى اليهودي الحالي» ، إنّها من فاطمة التي لم تخبرني أو

تشعرني بوجودها في الكتاب. مرّت ثمانية أشهر وستة أيّام منذ ذهابي إلى بيت المفتي وتسلّمي الكتب.

انفردت بها، بأسرع ما يمكن، لأقرأ:

«إلى اليهودي الحالي سالم النقّاش،

أفرَحك الله بالعزّ ورفع قدرك وسخّر لك حاجاتك وبلّغك ما تتمنّاه وأسعدك بما ترضاه.

أمّا بعد: ففوق كلّ عالم عليم؛ وقد حسبت الأيّام والسنين التي جمعتنا وانقضت، وفكّرت في حوادث الدهر ومواعظ التاريخ وتجارب النّاس؛ وتبيّن لي أنّ اليهودي الحالي سيبلغ بعد شهور سن الثامنة عشرة، وهو سن تكتمل فيه الخصال وتنبئ ببلوغ الرِجال، وفيها يتّقد الذهن ويقهر كلّ محال؛ وعليه فإنّني سأخبرك بما وصل إليه تفكيري، ورأيت فيه مشيئتي ومصيري. اعلم عافاك الله أنّني وهبتُ لك نفسي، حُرّة عاقلة، لتصبح زوجي إذا تجاوبت معي وأبلغتني بقولك: قَبلت.

قراري هذا وصلت إليه بعد أن درست أقوال الشريعة ورأيت فيها بحر اختلاف يجمع علماء الإسلام بدون اتفاق. وكان دليلي لقراري الإمام الجليل أبو حنيفة الذي أبهجني بإجازته للمرأة البالغة الراشدة تزويج نفسها بدون وليّ أمر، وزادني سروراً المجتهد اللبيب أبو المعارف بهاء الدين الحسن ابن عبدالله بفتواه المدوّنة في التصاريح المرسلة التي يجيز فيها للمسلمة الزواج من يهودي أو نصراني.

ولقد اكتملت لديَّ الفتوى، فاتخذت العِبرة، وعزمت بعدها على الحيلة بما يُرضي الله ويماثل صفته، الله الخالق لنا كلّنا: المسلمين واليهود والنصارى والمجوس والهندوس والكفّار.

أهبُ نفسي التي خلقها الله إلى أحد خلق الله، إليك أيّها اليهودي الحالي. أهبك متعتي وبدني وأخطب قُربك، مُتعتك وبدنك. فإذا قَبلتَ قُربي ووافقك بدني، فلا تتأخّر عن نداء رغبتي، وتدبُّر أمر سفرنا من بلدة يضيق أهلها بلقائنا، ويحرّمون زواجنا. وليكن مسيرنا إلى أبعد مكان يحط فيه الرحال.

أنتظر منك الجواب خلال أيّام عبر ما شئت من وصل أو اتصال. وفي الختام دمت في محبّة وسلام».

مضت كلّ هذه المدّة، وهي تنتظر الجواب خلال أيّام. ماذا أعمل ؟ أيّ جناح طائر سيوصلني إليها كلمحة عين، لأقول لها: قبلتُ، ثمّ قبلتُ، ثم قبلت.

سطّرتُ لها بهذا المعنى رسالة، طلبتُ منها العذر عن تأخّر الالتفات إلى موضع الرسالة والإدراك. وحدّدت يوم الجمعة كموعد لزيارتها.

لم أنتظر كثيراً. قرّرت أن أجد نفحة المُزيّنة بأيّة طريقة وفي أيّ مكان. مزّقتني الحيرة وأنا أتيه في الطرقات. أخيراً وجدت حفلتيْ عرس في بيتين متجاورين. رحتُ أعرض على أصحابهما خدماتي بالغناء. كنت آمل أن ألتقيها، فربّما تكون

هناك كمادة المزاينة الذين يقومون بالخدمة في مثل هذه المناسبات، وهذا ما حصل بالفعل. رأيتها قبل لحظات من الوقت المحدد لي للغناء. يمنعني خجلي أن أغنّي في حفل عرس يحضره كثيرون. أحتاج إلى قِرْبَة نبيذ لأتجرأ على ذلك. انسحبت خلسة بدون أن يشعر بي أحد، فبعد مقابلتي نفحة لم تعد للغناء من أهمّية. شعرت أنّني نجوت من ورطة تجربة قد لا تكون سهلة.

استعدَدت لمقابلة فاطمة، حسب الموعد، لكنّ الأيّام كانت تخبئ لي مفاجأة منعتني من تحقيق ذلك.

لقد ماتت أمّي، هكذا بدون مقدّمات. مرضت يومين فقط، وفي صباح اليوم الثالث لملمت آلامها ومضت.

لم أستطع الذهاب إلى نفحة لأعلمها بالخبر، ليكون عذري لدى فاطمة. صعب عليّ التكيّف مع طقوس العزاء إلاّ أنّه غير مقبول منّي تخطّيها. سيعتبرون ذلك هروباً من أداء الواجب تجاه أمّي. رغبتُ في الغناء، في الغناء وحده، آه، لو شرب حاييم حتى الثمالة وجاء يغنّي غير عابئ بالتقاليد المملّة.

أثناء أيّام العزاء السبعة، تردّد خبر هروب صبا ابنة جارنا أسعد مع علي ابن المؤذّن. كالعادة، راج الكثير من الأقاويل والإشاعات حول هروبهما. قالوا إنّ علاقتهما تمتد من أيّام علاقة المنتحرين نشوة وقاسم، كانا حينها رسولين يوصلان الأخبار والهدايا ويحددان المواعيد والأمكنة، وقد وجدا نفسيهما

يتقاربان، أيضاً، على خطى السابقين، لكنّهما لم يمضيا على أثرهما إلى الانتحار. فما ذكره المقرّبون إليهما من الأصدقاء والصديقات كشف أنّهما فضّلا الهرب انتقاماً من أبويهما لعدم تزويجهما السابقين لهما.

بعد العزاء مباشرة كان عليّ حضور حفلة عرس لمعرفتي بابن أخي العريس. جاء من صنعاء ليتزوّج إحدى النساء الثلاث اللواتي سبقنه بالمجيء من المدينة نفسها. طبعاً، لم يتزوّج الجميلة منهنّ، تلك التي شغلت الناس وأذهبت عقولهم.

في الحفلة تحدّث العريس عن عمله في دار ضرب العملة في صنعاء. قال إنه ورث عمله من أجداده السابقين، كأبي جدّه لأمّه وجدّه لأبيه اللذين عاشا في عدن، ثم انتقلا إلى صنعاء ليعملا في الحرفة نفسها.

ظهر هذا الزواج في ما بعد وكأنّه إنقاذ للمرأة المختارة، فلم يمرّ سوى يومين فقط حتى اجتمع يهود ومسلمون لينفّذوا حدّ الزنى برجم المرأتين الأُخريَيْن بالحجارة حتى الموت.

أذهلني موقف المرأة الجميلة التي تقاتل الكثيرون من أجلها، ورفضت الزواج من أيّ أحد. صار من المؤكّد لدى كلّ من عرفها أنّها تفضّل الرجم حتى الموت، عقوبة لممارساتها الجنسية الحرّة، على أن يمتلكها زوج.

شباب، من المِلّتين، طلبوا أن يُرموا معها كزناة، ولم يُستجب لهم. هالهم رجمها، ظلّوا يصرخون بأنّهم، أيضاً، زناة

يستحقون العقاب معها، لكن ذلك بدا ولهاً بالمقدّمة للعقاب، وليس إخلاصاً لشرع العقوبة، حتّى أن بعضهم لم يكن قد ارتبط معها بأية علاقة، مع هذا أراد أن يفتديها، أو على الأقل، أن يحظى بشرف الرجم معها.

موت جمالها الفاتن، بتلك الطريقة، كان مؤلماً لشباب اليهود والمسلمين، على السواء، وقد وحّدهم البكاء عليها عدّة أيام بعد أن فرّقتهم فتنتها عدّة أشهر.

وسط أجواء هذه الأحداث أردت لملمة أحزاني لفقد أمّي، ومحاولة الوصول إلى فاطمة، إلاّ أن أبي لم يحقق رغبتي، على خلاف تساهله الدائم معي. لقد مات، هو الآخر، وانقطع فيّ حلم سلام ممكن.

أصيب، مثل أمّي، بداء مُعد كما قال الكرّام، خبير الأمراض ومعالجها. قبل أن يتركاني وحيداً بين غرف البيت وأكياس الجص في المحل، بقيت عدة أسابيع ألاحظ بداية انتشار حبوب على وجهيهما، وألمح في جسديهما، إذا ما أتيح لي رؤية جوانب منهما، دمامل وتورّم مع احمرار. كثيرون ظهرت عليهم الأعراض نفسها وسبقوهما إلى الموت، حتى أن الحاخام اعتبر انتشار الأمراض وتزايد أعداد الموتى بمثابة عقاب من الله، بسبب تفشّي الزنى.

كنت قد اكتشفت أنّ أبي متيّم بإحدى النسوة القادمات. سمعته صدفة وهو يتحدث هامساً إلى أسعد. لم تكن تلك التي

فتنت الكثيرين، وإنّما هي الأخرى التي قُتلت معها في اليوم نفسه.

شعوري بفقده لم تجبره أيّة مواساة. أحسست أنني يتيم، وأنا أتذكر، أيضاً، أمّي وأخي. صرت بلا أهل، وحيداً سوى من أمل وحيد اسمه فاطمة.

- ١٢ -

ضقت بمن حولي، ولم أستطع أن أتحمّل أكثر. ربّما بسبب الضيق نفسه، وبجرأة لم أعهدها فيّ من قبل ، وجدتني بدون موعد أمام بيت المفتي.

في الباب قالت فاطمة: «أبي غير موجود، ولا أستطيع أن أدخلك البيت. لا توجد سوى أمّي وأنا».

قلت: «ألم تصبحي زوجتي. كيف لا أستطيع الدخول؟».

ابتسمت كبنت فوجئت بخطبتها ممّن تحبّه، قالت بعد لحظة ارتباك: «تفضّلوا، أهلاً وسهلاً».

قبل أن أجلس في الديوان الذي أوصلتني إليه، قلت:

«صرتُ بلا أب ولا أمّ».

«ماذا تقول؟»

«ماتت أمّي قبل يوم من الموعد المحدد لمجيئي إليك، وبعدها بشهر ونصف مات أبي».

شهقتْ ألماً، وهي تتحسّس نبرات الحزن في صوتي، فيما رحتُ أبكي.

لا أدري لماذا شعرت باليتم والفقدان في تلك اللحظة كما لم أشعر بهما من قبل. أمامها، فقط، بقيت أنشج بصوت عال. شعرت أنني وجدت، أخيراً، من يسمعني. ضمّت رأسي إلى صدرها وبقيت تهدئني وتمسح دموعي. بدت أكثر حميمية وقرباً من ذي قبل. ألم تصبح زوجتي منذ أن وهبتني نفسها، وقبلت؟

نادت أمّها لتخبرها بوفاة والديّ، وحين جاء أبوها كان هذا الخبر هو عذرها للسماح لي بدخول البيت في غيابه.

بدا لي أبوها وأمّها كأنّهما غصنان في شجرة يابسة، وأن فاطمة هي النسمة التي نشرها تقاربهما.

«كيف يمكن ترك هذين الغصنين وحدهما؟».

«لا عليك.. المهم تدبّر موضوع سفرنا من هذه البلدة. لقد سئمت البقاء فيها وأنت بعيد عنّي. لنذهب إلى ايّ مكان. ايّ مكان نكون فيه معاً».

غالبت حزني ومشاعري وهززت رأسي موافقاً.

«ستكون هنا أمام بيتنا في غبش يوم الجمعة القادم. سنمشي فجراً، والناس نيام، حتى لا نزعج أحداً منهم إذا رآنا أو أحسّ بنا».

استثمرت الوقت المتاح لي في ما تبقى من أيام، فبعت منزلنا بثمن بخس، وكذلك المحلّ، وأدوات البيت. لم يتبقَ لي سوى الذكرى.

ـ ١٣ ـ

ما إن ابتعدنا مسافة قصيرة من ريلة، حتى نزلت فاطمة، فجأة، من على ظهر الحمار الرّاكبة عليه وطلبت منّي أن أحلّ مكانها. عندما أتيت به معي باكراً ترددت في امتطائه ولم توافق إلاّ بعد إصرار منّي.

«ما كنت أوافق لولا أنني أرغب فعلاً بركوب الحمار. حلمت بذلك حين كان عمري عشر سنوات، أو أقل، لكنّ أمّي نهرتني: عيب، المرأة ما تعمل هكذا. الرجّال بس يركب الحمار والخيل».

«نحن اليهود، أيضاً لا يُسمح لنا بركوب الخيل، والحمار نركبه بشرط ألاّ نمرّ أثناء ذلك من أمام مسلم يكون جالساً. بائع الحمار لم يسلّمني إيّاه ليلة أمس إلاّ بعد أن ردّد كثيراً هذا الشرط، وكأنّه أرادني أن أحفظه إلى الأبد».

حاولت إقناعها بالعودة إلى ظهر الحمار، أو على الأقل، وضع الصرّتين اللتين في يدي ويديها فوقه ونظلّ نمشي بجواره، لكنّها أصرّت على أن أمتطيه.

شعرت أنني في حلم. لم أتخيّل في يوم ما ظهوري على مركوب أمام مسلم، فكيف أصدّق أنني أمضي أمامه راكباً بوجوده ورغبته. أمّا وقد صارت مسلمة زوجتي، فإنّني لست في حلم، بل في أكبر من حلم.

«كأنّنا في حلم.. من يصدّق أننا نمضي معاً».

«ومن يصدّق أن الحياة ليست سوى حلم عابر، وإن بدت غير كذلك»، قالت، لتضيف بعد لحظة: «كنت أعتقد، قبل خمس سنوات أنّ مَن ليس لديه أي حلم عليه أن ينتحر، أمّا الآن فلم أعد أرى ذلك. يكفي المرء أن يعيش، حتى وإن جفّت فيه الأحلام؛ فالحياة نفسها عبارة عن حلم، وما يعمله الحالمون، إذْ يحلمون، هو إبقاؤها في هذا المستوى»

«أوافقك أنّ الحياة حلم، لكن، الكفّ عن استدعاء الأحلام يعني بقاء الحياة نفسها، الحلم نفسه، فتتحول الحياة من حلم إلى كابوس».

لم تدع الحوار يطول، التفتت:

«هيّا سمّعني صوتك..».

«كنتُ سأُسمِعك وأنا أمشي».

«هذا لا يجوز. كيف ستسمعني وأنت تجهد نفسك بالمشي على قدميك، وأنا أسمع راكبة مرتاحة؟».

«ماذا تريدين أن أُسمِعك؟»

«ما يحلو لك، غناء، مزامير، تسابيح ومناجاة، تراتيل لقرآن كريم».

لم يكن في بالي، وأنا أمضي مع الغبش الباكر، غير الأغاريد الصوتية التي تجمع في ألحانها بين أغاريد العصافير الشجيّة والصوت الإنساني في نداءاته وتأوهاته:

«آآآ..

آآآ..

آآآآ.

آآ..

آآآآآ..

آ..

آآآآآآ.

.. ..

أووو

ووآآ أو..

آآآ..

أوو..

أو أو أو أوووووو..

آ آهـ.

. . . .

آهـ هـ هـ هـ أو آ . .

آ آ و ووو

آ آ آهـ».

تمشي كأنّها ترقص. تهيّأ لي، أحياناً، أنها تحاول الطيران. لم أوقف بهجتها. ومن أعمال حاييم غنّيت بالعبرية:

«صباح الصباح

للفتيان الملاح

من يهجوا القلب

ولا يقولوا آح».

بدت فاطمة نغمة في أغنيتي، تمضي معها إلى ما بعد الجبال وفوقها. أعدت الأغنية بالعربية، في إطار اللحن نفسه، ولم أتوقف.

انتبهت إلى أنّنا قطعنا مسافة طويلة، وأنا فيها ممتطي الحمار، أهجس بأفكاري، حيناً، وأغني حيناً، فيما الإنهاك قد يكون بلغ أشدّه عندها من المشي المتواصل، ومن هذياني المسموع.

«ما بك، واصل، غنّ؟»

«لن أغنّي إلاّ إذا ركبتِ، لقد أتعبتكِ بالمشي والكلام»، وقفزتُ من فوق الحمار.

قالت إنّها مستمتعة، واقترحت أن نجلس قليلاً لنستريح: «الحمار أيضاً تعب وعلينا أن نريحه».

ـ ١٤ ـ

ساعدنا الحديث على تجاوز التفكير في أتعاب السفر. صرنا نتقاسم الوقت بين ركوب ومشي. في الظهيرة جلسنا تحت ظلال شجرة للراحة وتناول بعض ما جلبته فاطمة من خبز وعسل. سألتني وهي تشير إلى عدد من البيوت في التلال المقابلة لنا: «ما اسم هذه القرية؟»

«لا أعرف، بلاد الله، بلاد من بلاد الله».

ضحكت وقالت: «لو أحد سمعك واتّبع قولك، وتناقل أبناؤه بعده هذا الاسم، بلاد الله، ستتحول مع الزمن إلى بلاد مقدّسة مثل القُدس. بل قد تكون أهم، فالقدس هي مدينة الأنبياء والمرسلين، أمّا هذه فستكون بلاد الله نفسه، الذي أرسل هؤلاء».

جلستُ إلى جوارها، تماماً. تفحّصت وجهي كثيراً وأمسكت زناريَ المتدلّيين على جانبيه؛ راحت تمسّحهما براحتي يديها: «ما أحلاك في الزنّار».

احتضنتُ رأسها بيديّ. قبّلتُ وجهها. رحتُ أشمُ خدّها

ورقبتها، ثمّ ركبتيها، وباطني قدميها اللتين نزعت عنهما حذاءهما. بادلتني القُبل نفسها في الأعضاء نفسها، وأكثر.

«أتعرف ماذا قلت لأبي وأمّي قبل ست سنوات، حين رغبت في بقائك معي؟»

ابتسمت، لتضيف: «قلت لهما إنّني سأعلّمك اللغة العربية حتى أجذبك إلى دين الإسلام؛ لم يوافقا بسهولة. أوردت إليهما حديث النبي محمد عليه الصلاة والسلام: أن المرء يولد على الفطرة وأنّ أبويه هما من يهوّدانه أو ينصّرانه. كان لأبي تفسيره الخاص الذي اختاره من متون الكتب، ولم يقبل ما قلته تماماً. فسّرت لهما الحديث بأنّه لم يقل إنّ الأبوين يمكن أيضاً أن يصيّرا ولدهما مسلماً، كأنّ الخِطاب موجّه إلى المسلمين، يدعوهم إلى العمل على أسلمة أطفال اليهود والنصارى والكفّار الذين ما زالوا على الفطرة».

«هل كنتِ تهدفين فعلاً أن أصبح مسلماً؟»

«في الحقيقة، لا أعرف هل وجهك الجالي الصغير كان وراء رغبتي في بقائك معي، أم حديث النبي عليه الصلاة والسلام، أم الاثنان معاً».

بكلماتها هذه عرفت سر عدم تشدّد أبيها وأمّها تجاه مقابلتي لها.

«هل يدري أبوك وأمّك أنّك سهرين معي؟».

بدا سؤالي مُقلقاً أو مستفزّاً لها، ولا أدري كيف خرج منّي بتلك السرعة وبلا تفكير. التفتت إليّ وكانت حينها هي التي تمشي في الأمام وأنا أتبعها راكباً على الحمار:

«أهرب. . .؟!»

ولم تزد على هذه الكلمة حين مضينا في صمت عميق، صاحب بقيّة طريقنا إلى قرية أخرى وصلنا إليها بعد يوم شاقّ من السفر.

على سطح مخزن للحبوب، جوار بيت استضافنا أصحابه، استعدت في البال رحلتنا الصعبة التي تهنا خلالها مرّتين عن الطريق. شعرتُ أنّني عكّرت مزاجها أثناء حديثي معها عن هربها معي. هي لا تهرب، وإنّما تمضي واثقة.

بقينا نتحدّث حتى الفجر، استعدنا، طوال الليل، ذكرياتنا في لحظاتها الحميمة. ولم ننس إطعام الحمار وسقيه. عرفت منها سبب عدم توصيل الرسائل من قبل نفحة المزيّنة: «أحبّت شاباً من أبناء القبائل، أشعرها بأنّه يحبّها وسيتزوجها. كان يمنعها من الذهاب إلى السوق أو المحلاّت لكي لا تفتن أحداً فيخطفها منه ويتزوجها. لم تكن توصل الرسائل أو تأخذ أجوبتها إلاّ حين تتاح لها فرصة لا يعلم معها حبيبها بذلك، اعترفت لي عندما عاتبتها. تعيش الآن في ضجر، فبعد أن قضى القبيلي رغبته فيها ووجد البديل منها، تنكّر لها وأهانها باعتبارها، كما يعتقد، مزيّنة ناقصة، لا تتساوى مع قدره».

غلبنا النوم لوقت قليل في الصباح، لكنّنا، إذْ صحونا على أصوات أهل البيت، سرعان ما قرّرنا مواصلة الرحلة دون تهاون.

قلت لها وقد أصبحنا على مشارف صنعاء: «سنصل إلى بيت خالي، بيت واسع، سأقول لهم إنني تزوّجتك من جِبْلَة، وإنّكِ يهودية، واسمكِ شَمْعَة».

«قُلْ لهم الحقيقة، إنّك تزوّجتني وأخذتني من ريدة، أمّا ديني فلا أحد سيسأل عنه. ما دمت معك سيظنّون أنني منك، وفعلاً أنا منك، كما أنت منّي. سمِّني فيطماه، لفظه يشبه اسمي بالعربية، فاطمة هي التي تفطم، أمّا فيطماه بالعبرية فيعني الثدي أو الحلمة، مصدر العطاء. أليس هذا الاسم أحسن؟».

هززت رأسي موافقاً، وقد صرت متأكّداً أنني بحاجة إلى دهر لأكتشف فاطمة.

ـ ١٥ ـ

في هذه السنة مضت الأيام في أحداث لا تنتهي، من سماعي بموت حايم معلّمي ومثالي المتّبع، إلى حمل فاطمة، أو فيطماه باسمها الجديد، وبقائها عدّة شهور تعاني آلام الحمل. أصرّت مع هذا على مواصلتها أداء الشعائر الدينية الإسلامية؛ تصلّي وحيدة في غرفتنا، وتصوم شهر رمضان. النسوة اليهوديات كنّ يؤكدن، وهنّ يحدقن في ملامح وجهها، أنها ستنجب ذكراً.

ازداد نحولها في الشهر الأخير من الحمل. لم تعد تتقبل الأكل، وصرت أخاف عليها كثيراً.

كنت قد بدأت العمل مع خالي في محل لصنع القمريات، منذ أن وصلنا.

لم تكن زوجة خالي واسعة البال في تعاملها مع فاطمة. كنت أظنّ أنها تقوم بإزعاجها كثيراً. لم تقل لي هي ذلك. لكنني شعرت أن ضمور جسدها كان بسبب سوء معاملة هذه المرأة.

وفيها، في أوّل الشهر الأخير منها، جاء اليوم الذي لم نحسب له حساب.

قبل أن أذهب إلى العمل، في ذلك الصباح، رأيتها تتأوه متوجّعة، بحال غير مألوف. ناولتني ورقة ملفوفة لا أدري ما بها.

«هذه وصيّتي، إذا مت أعطها لابنتنا».

فزعت لما سمعت، ورحت أقبّلها وأرجوها أن تصبر، فهي آلام الولادة التي تواجه أي امرأة في حال مخاض.

أصرّت على ذهابي إلى العمل، لكنّني لم أمكث هناك سوى الربع الأول من النهار، حتى جاءوا ينادونني من بيت خالي.

رأيت نساء كثيرات، حين وصلت، كُنّ مكوّمات حول فاطمة؛ بعد لحظة جاءت واحدة منهنّ إلى الزاوية التي جلست فيها بعيداً عنهن. انتبهت إلى أنّها تحمل مولوداً صغيراً. فرحت إذْ رأيته.

«ماذا أسمّيه؟» حدّثت نفسي وأنا أحتضنه، فيما عادت المرأة لتأخذه وتعتني به أكثر، كما بدا لي. تحرّكت النسوة بجزع واضطراب، وسرعان ما ارتفع صوتهن بالصراخ والعويل: «ماتت، أووه ماتت».

«ماتت؟» قلت، وأنا أتفحص الجثة في لحظات مرّت كدهر. وجدتني أصرخ باسمها «فيطماء، فيطماء، فاطمة،

فيطماه، فاطمة، فاطمة» لكنّها، يا لأسف الدهر، يا لأسف الحياة، كانت لا تجيب. نلبتها بصوت عال، وأنا أتشبث بها، أشمّ رائحتها للمرّة الأخيرة.

لم أعد أشعر بوجودي إلاّ حين استيقظت في العصر. يبدو أنّي كنت غائباً عن الوعي. أخبروني أنّهم قبروها. لم أرغب في مشاركتهم. كيف لي القيام بذلك؟.

جاء كثيرون لمواساتي، بمن فيهم الحاخام يحيى. بقيت أتحدث عنها، عن صفاتها، وحبّها للناس: «كانت تحبّ اليهود، ليست مثل الآخرين، هي مسلمة، تزوّجتني أنا اليهوديّ الحالي، أنا صادق معكم، ستغضب إذا تكلّمت عنها كذباً وهي ميّتة، هل تسمعينني يا فاطمة؟ اسمها فاطمة وهو يشبه اسمها بالعبرية فيطماه».

تلفّت الحاضرون بدهشة وراحوا يحدّقون فيّ، يتهامسون مستغربين ما سمعوا.

قال الحاخام: «كيف يُعقل، تتزوّجك مسلمة وأنت يهودي، لا والله، هم يتزوجون بنات اليهود، دينهم يسمح، لكن لا يسمحون بأن يتزوج اليهود بناتهم إلاّ إذا أسلم اليهودي، قد هو واضح، أسلمت وجالس تضحك علينا».

أحدهم أضاف: «فروج بناتهم خلقهن ربّهم، وخيّطهن، لا يفتحنها إلاّ للمسلمين، أمّا فروج بناتنا فتركهنّ مفتوحة للجميع..».

حاولت أن أفهمهم أنها تزوجتني بعد اقتناعها أن ذلك لا يتعارض مع الإسلام، وأنها لم تطلب مني، أبداً، تغيير ديني، بل: «لم تسألني في أي يوم: ما هو دينك؟».

«دينك قد هو واضح» قال الحاخام، ونهض ليغادر غاضباً. رافقه خالي إلى خارج البيت، حيث صارا يتحدثان بصوتين عاليين لا يصلانني بوضوح.

الآخرون، أيضاً، غادروا بعد صراخهم في وجهي باللعنات والشتائم والوعود بمعاقبتي لما فعلت.

لم أنم، بقيت على جمرين، جمر الرحيل، وجمر البقاء. لقد قُطع حبل أمل شدّني كثيراً إلى الحياة.

- ١٦ -

في الصباح، أخذت المولود الذي كنت قد أسميته سعيد، ومضيت لأزور قبرها. سألت العكّوش الساكن بجوار المقبرة وحارسها: «أين قبر المتوفّاة يوم أمس؟». أشار بيده إلى قبر يبعد كثيراً عن بقية القبور، قال: «قبروها هناك، في النهار قبروها بجوار ذلك القبر، وفي الليل عادوا وفتحوا القبر، أخذوا جثّتها ودفنوها هناك، عزلوها عن اليهود، قالوا هي مسلمة، كافرة».

ماذا أعمل؟ رغبت في الحديث معها، في أوّل يوم فراق، في أوّل يوم أشعر فيه أنني من دوني، عن ابننا سعيد، الحالي، أحلى من اليهوديِّ الحالي. أردت سؤالها: كيف ستناديه يهوديٌّ حالي أم مسلم حالي؟ لكنّها ربّما في حال فزع، وليست بحاجة إلى أي كلام. هل كانت كذلك، في قبرها، أم أنا الذي كنت مفزوعاً؟

فتحت زوجة خالي الباب، وسدّت مدخله بجسدها. رمت بملابسنا وحاجياتنا إلى الشارع، قبل أن تقول: «امشِ لك الآن إلى عند أصحابك المسلمين وأعطهم ابنك المسلم يربّونه. أنت

تعرف، الابن يتبع أمّه، هذا مكتوب في شريعتنا اليهودية كما قالوا، وقد أصبحت مسلماً مثل أمّه، ما يبقى؟». اغلقت عليّ الباب، فبقيت أمامه مشلول الحركة، لا أدري ماذا أقول، وأين أمضي ؟.

لم أستطع جمع وأخذ ما تبعثر منّا.

حين سمعت بكاء سعيد الخافت تنبّهت إلى أنني صرت أمشي في طريق ابتعدت كثيراً عن الحيّ اليهودي. لا أعرف التعامل مع الأطفال الصغار.

جاءتني فكرة أن أذهب به إلى بيت خالته، علّها تشفق عليه وترعاه. رافقني عبدالله القنوع، الذي كنت قد تعرفت إليه منذ مجيئي إلى صنعاء، إلى الأحياء التي يعيش فيها المسلمون، لنسأل عن البيت. لم نجده إلاّ بعد جهد كبير وتعب. فتحت أمة الرؤوف الباب. قالت: «لا أستطيع إدخالك، زوجي غائب». أبلغتها خبر أختها. قالت: «هي ماتت من زمان، يوم تزوّجت يهودي ورحلت معه».

اكتشفت أنها تعرف مصيرها، وإلى أين ذهبت. ربّما، أخبرها أبوها وأمّها.

قلت لها: «هذا ابنكم، ابن فاطمة، ما رضي به اليهود. في شريعتهم يتبع الابن أمّه، وأمّه، والله والله، بقيت مسلمة طوال حياتها، وأنا أطلب عونكم بتربيته، ومستعدّ للنفقة وكلّ ما تطلبونه».

«ونحن المسلمين عندنا الولد يتبع أباه، لا يتبع أمّه، وأنت أبوه يهودي ابن يهودي، وهو يهودي ابن يهودي» أجابت بصوت غاضب. شعرت أنّها تريد صفعي بيدها التي راحت تحرّكها بشدّة، وهي تنطق كلماتها الأخيرة: «يهودي ابن يهودي».

مضيتُ لا أدري إلى أين؟. بدون فاطمة، بدت الأرض كلّها قبراً، والحياة كلّها موتاً. كيف لي أن أزور قبرها المعزول عن اليهود، وأُحدّث روحها المطرودة من المسلمين؟

هل سيعيش ابننا سعيد، اليهودي ابن المسلمة، المسلم ابن اليهودي، ليقرأ وصيّة أمّه؟

من سيقرأ يوماً حكاية اليهوديّ الحالي، ويسمع أغنيته:

«عقلي ارتبش لمّا خطر قُبالي
وهدّ عُمري ونحل عظامي

ياغارتاه بالله ارحموا لحالي
قولوا له يجلس سنة قُبالي

بالله ارحموا قلبي المولّع
لحق وراه ما عد قدر يرجع

حُبيّه من عائلة محمّد
لو اقْرُبِه اعيش معِه مُمجّد

إنْ متْ ياأهْلَ الله سامحوني
وَجَنْبِهِ بالأرض اقبروني

إلقوا السـلام كما السلام لله
يهودي عشـق مثل خلقة الله».

مذهب فاطمة

- ١ -

تعبت رجلاي وأنا أمضي من بيت يهودي إلى بيت مسلم، من تاجر إلى صانع، ومن حاخام إلى فقيه.

«بالله عليكم، هل يجوز بدينكم وعُرفكم ترك طفل عمره يوم، هكذا بدون رحمة، حتى يموت؟»

زُنّاراي المتدلّيان على جانبي رأسي أبعدا المسلمين عن إلقاء نظرة رحمة واحدة عليّ، كما أنّهما لم يشفعا لي لدى اليهود. لم يعودا دليل ثقة ليهوديتي عندهم.

كان عليّ إيجاد مُنقذٍ لطفلي، وإلاّ أكون قد استسلمت للموت، ولا وجهة بعده. شعرت بألم شديد، كدت معه أمقت كلّ يهودي ومسلم. بكاء سعيد أربك خطواتي، والأسئلة وخزت ذهني: «هل يمكن لروح تسكنها فاطمة أن تصاب بالخراب؟ كيف لي أن أرمّم انشطار الروح وانشقاق الجسد؟».

لم يتبقّ لي إلاّ قصر نائب الإمام، أو الإمام نفسه، المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم.

وجدت نفسي أمضي في اتجاهها، فلم يعد لديّ، أنا الذي تعصف بي شكوك إيمانية، سوى دخول فاطمة، أعني دخول الإسلام. ليس لأنني اعتقده ديناً، بل لأنني أردت حمل صفة منها، صفة دلّتها إليّ، فاختارتني زوج حياة وأمل.

في اتجاهها ليس أمامي سوى مسامحة من قام بأي خطيئة ضدّنا، أنا وهي وسعيد. الحبّ والمسامحة والسلام هي طريقها. شعرت باطمئنان إذ استعدتها، تذكّرت حكاية روتها لي عن محيي الدين ابن عربي أو الشيخ الأكبر، كما تسمّيه.

«إذا أردت أن لا تخاف أحداً فلا تُخِفْ أحداً، تأمن من كلّ شيء إذا أمن منك كلّ شيء». هذا هو سرّ الأمان في النفوس عند الشيخ الأكبر. قالت إنّه: مرّ في سفره، في زمانه الأوّل، ما بين قرمونة وبلمة من بلاد الأندلس، وإذا بقطيع حُمر وحش ترعى، وكان ابن عربي مولعاً بصيدها، لكنّه، يومها، فكّر في نفسه، وجعل في قلبه أن لا يؤذي واحداً منها بصيد، وعندما أبصرها الحصان الذي هو راكبه هشّ إليها فمسكه عنها، وبقي رُمحه بيده إلى أن وصل إليها ودخل بينها، وربّما مرّ سنان الرمح بأسنمة بعضها وهي في المرعى، فما رفعت رؤوسها ولا فزعت أو هربت، حتى تجاوزها. ثمّ أعقبه غلمانه الذين كانوا على بعد منه، ففرّت الحمر أمامهم، وما علم سبب ذلك إلاّ بعد حين، إذ اكتشف أن ذلك كان بسبب اقتناعه في المعاملة، فقد سرى في نفوسهم الأمان الذي كان في نفسه لهم.

ـ ٢ ـ

أمام قصر نائب الإمام، أمير صنعاء، فوجئت بوجه مألوف لديّ. كان يجلس مع ثلاثة آخرين، ولم ينتبه لوجودي. لا أعرف أين قابلته من قبل؟ بل، أين عرفته؟

ليست مقابلة عابرة هي ما جمعنا، إنّما معرفة أكيدة. أكاد أنطق اسمه، لكن ذاكرتي لا تساعدني. التفَتَ في اتجاهي، فالتقت عيناي عينيه. قام من مكانه، وقال: «حيّاك الله.. حيّاك يا سالم اليهودي، نوّرتم صنعاء، متى جئتم».

نبرات الصوت المتناغمة مع حركة ملامح الوجه تكفي لتذكّرني به، وإن كنت لم أسمع صوته من قبل، ولم أره إلاّ عابراً. إنّه علي ابن صالح المؤذّن، الذي تخلّى عن تعاليم أبيه حين قرّر الهرب مع صبا، لكنّه لم يستطع التخلي عن نبرة صوته وملامح وجهه اللتين أورثهما له، وعبرهما تعرّفت إليه.

بعد أن تبادلنا الحديث، وعرف حكايتي، قال وهو يلمّ حاجياته: «علينا الآن إنقاذ الطفل، هيّا نروح إلى البيت».

بيته لا يبتعد كثيراً عن القصر، حين دخلنا إليه، قال بصوت عال: «ما ظنّكِ.. من جاء إلينا اليوم؟».

«ما أدراني.. من هو؟». جاء صوت صبا من الغرفة المجاورة. احتجبت فيها بعد فتحها الباب لنا وسماعها زوجها يقول: «ستر الله.. ستر الله»، ممّا يعني أنّه جاء بصحبة رجل آخر وعليها الاحتجاب عنه.

أخذ الطفل من يديّ، وراح إليها لترضعه.

«زوجتي مُرضِعة.. وَلدت لنا بنتاً قبل شهرين»

«أنا مستعد للنفقة ولأيّ حاجة تطلبونها.. المهم ترضعه مع البنت الصغيرة»

«لا تهتمّ.. سنعمله بعيوننا».

تذكّرت صراعات أبيه مع أسعد، وهروبه مع صبا ليتزوّجا في صنعاء. تذكرت نشوة وقاسم.

أثناء تناول الغذاء معه، قال:

«هل ما زلت عند كلامك.. تريد دخول الإسلام؟».

«لم أغيّر رأيي».

مضينا في نقاش طويل، فضّل إثره إعلان إسلامي عند الإمام المتوكل إسماعيل «هو عالم بالدين ويعرف ما يتوجب له وعليه».

عدت لجمع الملابس والحاجيات المبعثرة أمام بيت خالي.

صار بعضها بين لُعَب الأطفال. ما هالني هو ضياع وصيّتها المكتوبة. تأكّدت بعد بحث أن الحصول عليها يعادل رجوع فاطمة نفسها.

قامت صبا بجهد كبير لتغسل الملابس، حتى استطعت في صباح اليوم التالي أن ألبس الثوب اللائق بمقابلة الإمام في قصره بضوران آنس.

بدا أمامي وجهاً مهيباً، بملبسه وعمامته وجنبيّته الموضوعة على جانب خصره، في حزام عريض تضيء منه خيوط ذهبيّة صفراء. نفّذتُ تعليمات علي، فما إن دخلنا حتى رحت أقبّل يده اليمنى وركبتيه، تماماً، كما عمل هو قبلي. قال: «حفظ الله عزّكم مولانا الإمام، جئت إليكم، أعزّكم الله، بسالم اليهودي، يريد منكم قبول توبته وإسلامه».

من أين لي بفاطمة أخرى؛ بأناس يشبهونها بإسلامهم؟

تساءلت وأنا أستعيد الكلام المُذلّ الذي سمعته مئات المرّات؛ فلا يُنطق اسم يهودي إلاّ بعد الدعاء للمخاطب بالقول: «أعزّكم الله»، وكأنّه سيسمع اسم إنسان ناقص، أو شيء غير عزيز أو كريم.

ثمّ، كيف يقبل توبتي؟ هل كنتُ كافراً؟ هل كنت كافراً وأنا في ظلّ فاطمة؟

انتبهت إلى صوت الإمام: «ما بك يا يهودي.. سارح الذهن؟»

ارتبكت، لأبدأ في الإجابة عن أسئلته. شعرت باطمئنان وأنا ألاحظ ملامح رضا على أجوبتي في وجهه.

حين نطقت بالشهادتين: «أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله» طلب منّي الجلوس، قريباً منه، ولم أدرك أن هذا القُرب سيدوم سنوات طويلة.

ـ ٣ ـ

القاضي أحمد، كما ينادونه، اعتبر نفسه مسؤولاً عن تأهيلي لأصبح مُسلماً كامل الأهليّة. وجهه ممتلئ بالشدّة والجدّية. «هداك الله إلى دينه القويم، ونحن سنقوّمك ونطهّرك من رجس الشيطان وآثام الكفر». يتحدّث وكأنّ كلامه يقين لا يقبل الشك.

في اليوم التالي، لم يسألني عن معرفتي بالإسلام والكتب التي قرأتها، كما عمل الإمام.

«أفضل الأسماء ما عُبِّد وحُمِّد تبعاً لحديث نبي الله محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وأنا أختار لك اسم عبدالهادي، لأنّه سبحانه وتعالى هو الهادي لك إلى الإسلام».

كلّ همّه كان تغيير اسمي، والتأكد من ختاني أو تجديده، وقصّ زنّاري، وحفظ اسم المذهب الذي سأصبح تابعاً له.

فكّرت في فاطمة. هل سيموت اسم اليهوديّ الحالي مع صمت لسانها إلى الأبد؟

لو سُمح لي بالاختيار لرغبت أن ينادوني: متيّم فاطمة، ولا اسم سواه. لكنّ ذلك بدا غير ممكن. اقترحت أن أُسمّى بأحد

الأسماء التي حملَت صفاتها وأحبّتني من خلالها: «لو تكرّمتم بكرمكم الله، وتفضّلتم علينا بالسماح بتسميتنا عبد السلام، أو عبد الودود، أو عبد الحبيب، سيكون هذا من رحمتكم وعطفكم علينا».

«عندما تولد يسمّيك أبوك، أمّا إذا كان أبوك كافراً، ثمّ دخلت الإسلام، فإنّ من يسمّيك هو دين الإسلام الذي أصبح أباك الجديد».

أردت سؤاله: «وهل صار كذلك أمّي؟» إلاّ أنّني لم أجرؤ، سيظنّه سخرية.

هكذا، صار اسمي عبدالهادي، كما صرت معرّضاً لتجديد ختن ذكَري، مع أنّني خُتنت جيّداً حسب الشريعة اليهودية.

لم أنجُ إلاّ بعد رفع رجائي إلى الإمام. كان غير مقتنع بقرار إعفائي من تكرار القطع. بدا أنّه تهاون، فقط، إعجاباً بإجادتي الكتابة بالعربية. في رسالة الاستعطاف التي حرصت على الإشارة فيها إلى أنّني كاتبها، أمر: «يُعفى من الختان مرّة ثانية لحُسن خطّه وخطابه المرفوع إلينا».

مع هذا، إذا كنتُ قد نجوت من الختان الثاني، فإنّني لم أنج من قصّ زنّاري.

«يجب عليك قصّهما. بقاؤهما يعني أنّك يهودي كافر، غير مسلم». جميعهم ردّدوا هذا القول. قليلون منهم، فقط، لم يذكروا كلمة «كافر».

عندما قصّوا الزُّنّارين، شعرت كأنّهم قصّوا كلمات فاطمة؛ تلك التي كانت تقولها أثناء مسحهما بيديها.

كلّ شيء يُذكّرني بها، بعُمري الذي مضى وفيه فاطمة، اسمي وختاني وزنّاراي، بل وديني ومذهبي؛ حتّى أنّهم حين طلبوا منّي ذكر اسم المذهب الذي لقّنوني إيّاه، على اعتبار أنّه الصحيح، وما عداه، من المذاهب الإسلامية، باطل، كدتُ أقول: «مذهب فاطمة.. أنا من مذهب فاطمة».

ملحق بكتاب مذهب فاطمة

بعد سنوات قليلة، سيبلغ عمري ستّين عاماً.

لا أدري كيف مضى، هكذا، العمر؟ هرب كحُلم، ولم أستطع الإمساك به، لأوجّهه حيثما أردت.

سنوات كثيرة مضت بدونها. في معظمها، بقيت أرافق جيش الإمام. أنفّذ أمره: «تدوين فتوحات الجيش وانتصاراته ضد العاصين والخارجين عن الدين والدولة». بعد أن انتبه إلى ما تشكّله أصابعي من فنون الخط وحُسن العبارة، أرادني سجلاً لتخليده.

سجّلت في كتاب كلّ شاردة وواردة ممّا حدث. الحروب كانت قاسية، اتجه فيها الجيش جنوباً لتأديب المتمرّدين وإجبارهم على دفع الضرائب المقرّرة من الحضرة المتوكلية. مخالفو مذهب الإمام فُرض عليهم دفع ضريبة مضاعفة، مثلهم مثل سكّان البلدان غير الإسلامية. كان الغازون يتصالحون معهم ليبقوا في حالهم مقابل دفع ضريبة «العُشر».

«غير معقول، هؤلاء مسلمون من مذهب السنّة»

هذا ما يقوله ابني سعيد، حين يسمع ذكرياتي مع الجيش. صار يسكن معي منذ سنوات. كان عليه أن يغادر منزل محتضنيه علي المؤذن وصبا، بعد أن بلغ السادسة عشرة من عمره.

أنا، أيضاً، عندما أتذكّر ما قام به الجيش مع السكّان، اؤنّب عيني وأصابعي على بقائهما تشاهدان ما يحدث وتدوّنانه دون اعتراض أو رفض. صحيح أنّني كنت أميناً بنقلي للوقائع، إلاّ أن هذا لا يكفي.

النسخة الوحيدة التي كتبتها بخطّي يتداولها أعيان القصر، ويزهون بما فيها من ذكر ما قام به الجيش المتوكلي الجرّار.

حين أصبح المهدي إماماً، خلفاً للمتوكل إسماعيل، جاءوا إليّ بهذه النسخة الوحيدة، وطلبوا منّي نقلها إلى أربع نُسخ. رحّبت بالطلب، بل فرحت به كثيراً.

بقوا يترددون إلى دكّاني الصغير، الذي صرت أبيع فيه بعض الحاجيات القليلة منذ عودتي من الحرب، ويسألون عن النُسخ. أعدهم من سبت إلى آخر، ولم يتنبهوا إلى أنّ اليهود لا يعملون في هذا اليوم.

لم اكن أعتبر نفسي يهودياً، لكنّني لم أتخلّ عن صوتها فيّ، وهي تنادي: اليهودِيّ الحالي. كما لا يمكن التخلّي عن صفتها الإسلامية، التي لازمتني من يوم اعتناقي مذهبها، مذهب فاطمة.

كنتُ قد مزّقت النسخة، وبدأت بإعادة صياغة تاريخ ما

جرى، على طريقتي الخاصة التي ترضيني، وليس بالطريقة المرضية للإمام.

لكنني قبل أن أفاجئه بنسخة جديدة غير متطابقة، بل مختلفة، تماماً، عن الأولى، فكّرت في إهدائه نسخة من كتاب آخر، كنت قد بدأت بكتابته بعد أن أصبحت عاطلاً عن الحرب، أعني عن تدوينها. الكتاب الذي سجّلت فيه أخبار اليهود أيّام الإمام المتوكّل وما جرى وما زال يجري لهم في ظل خليفته الحالي، أردته مقدّمة تمهّد، عند المهدي، لما سيليه. رحتُ أنقله سريعاً، في نسخة مختصرة وملطّفة، أسميتها: حوليات اليهود اليمانية.

حوليات اليهود اليمانية

- ١ -

ودخلت سنة سبع وسبعين وألف للهجرة، وفي شهر رجب منها، أظهر اليهود تململهم من تكرار دوران الدائرة، ونفاد قدرتهم حتى على الضجر.

أيامها، وصلت إليهم أخبار عن ظهور المسيح المخلّص المذكور في الكتب القديمة، فبدت فرحتهم عارمة كأن لم يكن لهم من حلم سوى انتظاره.

تنادوا، مبشّرين به، في جهات اليمن الأعلى والأسفل، في الشمال والجنوب. ظنّوا ذلك تحققاً لما تنبّأت به تلك الكتب: إنّ الغلبة ستكون لليهود، وإنّ المُلك سيصير لهم وحدهم.

شبتاي زيفي كان اسمه، قبل أن يصبح المسيح المخلّص. بدأت دعوته في أزمير، بتركيا، ثمّ مضى بها إلى سالونيك وأثينا والقاهرة، ليصل بها إلى أورشليم التي أراد أن يتوجّه إليها أتباع مِلّته، من يعتبرونها مقصدهم الأخير في هذه الأرض.

مع وصول أخبار دعوة هذا المسيح الجديد، عبر رسائل من أورشليم ومصر، اضطربت أحوال اليهود، وبان عليهم الارتباك

والانفعال، أكثر من أيّ عام مضى. لم يستطع البعض إخفاء فرحته بقرب الخلاص، وعبّر عنها بأسلوب لم يألفه المسلمون. أحدهم قال لمسلم، وهو يخيط له حذاءه: «سترى، إذا ما ركّعناكم كثيراً، وانتقمنا منكم، سندعكم تمشون حفاة؛ اليهود وحدهم سيلبسون الأحذية، أمّا أنتم فعليكم، فقط، صناعتها وإصلاحها لهم». قيل إنّ المسلم أصيب بالذهول لما سمعه، ولم يقم بأيّ رد لدهشته من صدور كلام كهذا من يهودي، فلم يجرؤ أحد مثله على إبداء رأي مخالف أمام مسلم، فما بالك بتهديد جميع المسلمين. حاول إقناع نفسه، كما ذكروا، بأنّ ما سمعه هو وسواس جنّي، تلبّسه عبر طلاسم سحرية وضعها اليهودي في حذائه أثناء إصلاحه. لم يشكُ لأحد تهديدات الجنّي، ونبرات صوته التي صارت تعلو كل يوم، لتصبح صراخاً لا يطيقه رأسه.

كان يمكن أن يبقى كاتماً لما يعانيه، لولا أنّ أحداثاً جرت، فتّحت عينيه، وفتّقت ذهنه، ليكتشف أنّ ما حدث له حدث فعلاً لا سحراً.

تردّدت الأخبار عن أحدهم، قال إنّهم سيفرضون على المسلمين دفع الجزية لليهود، بمقدار ضعف ما كانوا يدفعونه لهم. وتجادل بائع يهودي مع مسلم على قيمة فأس من حديد، فقال البائع: «أعطني فيه ما شئت، فهو اليوم معك، وغداً معي، أضرب به رأسك». وتوعّد آخر يهوديّ بهدم ما بناه المسلمون في أورشليم، وتحويل مساجدهم إلى كُنس.

أمام هذه الأقوال، خاف بعض المسلمين على مستقبل أحوالهم، فحاولوا أخذ الأمان لأنفسهم من المبشّرين بزمنهم.

ظهر اليهود، وكأنهم صاروا يعرفون مصيرهم، تماماً. بل قاموا بترتيب حياتهم، كأنّهم بدأوا العيش في ظلّ هذا المصير، برعايته وحمايته وتوجيهه لخطواتهم نحو وجهة واحدة، هي أورشليم. في سبيل هذه الوجهة لم يستطع بعضهم الصبر، وراحوا، في الأسبوع الأول من شهر شعبان، يبيعون بيوتهم وامتعتهم، وجميع أملاكهم بأرخص الأثمان.

لم يكن موضوع رحيلهم هو الذي يثير الجدل لدى المسلمين في الماضي، بل بقاؤهم. تصريحاتهم الأخيرة، لم تُعد الجدل القديم، فحسب، بل اتخذها البعض لتأكيد ظنونه وأقواله عن اليهود. القاضي أحمد بن سعد الدين كتب سؤالاً إلى الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم بن محمد حول ما قام به اليهود، وعدم التزامهم، كما قال، بشروط الذمّة التي تكفل لهم العيش مع المسلمين. أجابه الإمام بأنّ عدم التزامهم بالشروط يقتضي «خرم الذمّة أو نقصها».

تبعاً لتأويل هذا الجواب، أشيع «أن الإمام أهدرهم وإلى موارد الهلاك أصدرهم». أهالي كوكبان وشِبام من المسلمين، ما إن وصلهم الخبر، حتى بادروا إلى هتك العائلات اليهودية عندهم، وأخذوا ما معهم من الأثاث والحُليّ والنقود.

ليس هذا، فقط، فحين نادى المنادي في شبام إنّ الإمام

أهدر اليهود، لم يكن صوته بحاجة إلى زمن طويل ليعبر الآذان والأفواه ويصل إلى كلّ همدان. هناك انتهز أهل حاز والعُرة الفرصة، ثمّ تبعهم أهالي العروس وحضور وبلاد البستان، فنهبوا مَن عندهم بن اليهود.

أهالي صنعاء، وما حولها، أرادوا مثل ذلك، فمنعهم أميرها علي بن الإمام المؤيد.

الحديث عن النهب والسلب كان على كّل لسان، فوصل إلى الإمام المتوكل الذي هاله ما سمع، فأنكر أنّه قد أباح ما قام به المسلمون ضد اليهود. ولكي ينفي تأويل ما قد قاله وجّه بمعاقبة الفاعلين، وشدّد عليهم ولم يأخذ باللين، كما ذكر كُتّاب القصر وأعوان الإمام.

قبل هذا، أعلن اليهود أنّه سيقع في ثاني عشر من شعبان حدث، يكون بمثابة الدليل على صدقهم، في ما يدّعونه من عودة الدولة لهم، وذلك من خلال صوت يسمعه سكّان الأرض جميعاً. إلاّ أنّ ذلك اليوم مرّ ولم يقع فيه شيء.

صار الجدل حول اليهود في كلّ مكان، وفي شهر رمضان من هذا العام استدعى الإمام المتوكل جماعة من كبرائهم إلى صنعاء، حيث كان في الديوان بالسودة. أبقاهم عنده مدّة من الزمن، وظهر أنّه يريد قتلهم، كما قال الفقيه محمد بن علي بن جميل، إذْ طلب الإمام حضور القاضي أحمد بن سعد الدين بن الحسين المسوري إلى الديوان، وهناك أخبره بما نوى عمله.

استحسن القاضي ذلك. إلاّ أنّ الفقيه بن جميل، الذي كان وحده يستمع لحديثهما، حاول، كما قال، أن يراجعهما من أجل مَن وصفهم بالذميين؛ لكن الإمام ردّ عليه: «لا تقل الذمّيين، ولا تدعوهم بالذمّيين، بل قولوا: اليهود، فإنّه لا ذمّة لهم، فقد نقضوا العهد». بقي بن جميل يبيّن للإمام بأنّه إذا قام بقتلهم سيحصل الكثير من الفساد والاقتتال بين المسلمين على ما معهم من الأموال، إلى أن فتر عزمه وتراجع عمّا كان قد أقرّه.

بعدها، وجّه الإمام، في آخر شوّال، بإدخال جماعة اليهود المطلوبين إلى مجلسه، ثُمّ أمر بإزالة عمائمهم، والتعزير بهم، وحبس كبيرهم المسمّى النقّاش، ونفيه إلى جزيرة كمران.

ـ ٢ ـ

ما حدث لم يمنع اليهود عن مواصلة أحلامهم، بل يمكن القول إنّهم زادوا فيها إلى حد الإفراط. بدا ذلك في ما عملوه عندما أرادوا البدء بانتقال الحكم من المسلمين إليهم. يومها اجتمع عدد منهم في صنعاء، في يوم سبت، ليختاروا وليّاً يتقدّمهم وينتزع لهم الحكم، فاتفقوا على شخص يدعونه سليمان الأقطع أوسليمان الجمل. كان سليمان هذا، أو النوش، حسب ما يدعونه، أيضاً، هو أحد العارفين بالشريعة اليهودية، ولم يجدوا غيره لتولّي حكم صنعاء وملك أمرها. ألبسوه أغلى الثياب المماثلة لزيّ الملوك، وطيّبوه وزيّنوه. أخذوا في تعظيمه وتبجيله والتبرُّك به، وقد ظنّوا «أن ذلك اليوم لن ينقضي حتى يملك الأمر». قيل إنّهم أداروا كؤوس الخمر احتفاء بما سيكون، وبات من المؤكد عندهم؛ إلاّ أن ذلك لم تبيّن صحّته.

شيّعه أكثر اليهود، وزفّوه كالعريس إلى القصر، إلاّ أنّهم كلّما عبروا شارعاً من شوارع المدينة، رجع بعضهم إلى الكنيسة، فلم يصل منهم إلى باب قصر صنعاء غير اثنين، طلما

معه حتى وصلا إلى بهو القصر الذي يوصل إلى الساحة القريبة من باب مسجد المرادية. وهناك، حين رأى المرافقان الأمير علي بن المؤيد في تلك الساحة، انسلاً عن صاحبهما، وتراجعا هاربين.

الأقطع وحده تقدّم غير مبال، بلا خوف ولا وجل. تحدّث بالعبرية إلى الأمير، بكلام لم يفهمه أحد. ذهبوا ليأتوا بشخص إلى القصر للترجمة. لم يصدّق المترجم ما سمعته أذناه، تراجع ولم يجرؤ على كشف ما سمعه، لكنه مع شدّة لهجة طلب صاحب القصر، قال: يقول لكم: «قُم من مقامك، فقد وفت دولتكم، وانقرضت أيامكم، والدولة الآن لنا».

الأمير نفسه لم يصدّق هذه الجرأة، فأمر باختباره: هل هو بعقله، أم متغيّر بخمر ونحوه. عندما وجدوه عاقلاً غير مخمور أو مجنون، وجّه بحبسه، ورفع قضيته إلى أمير المؤمنين المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم الذي سرعان ما أجاب، وأمر بقتله.

حينما عرف اليهود بذلك هالهم الأمر، وخجلوا من خذلانهم لمن أرادوه فاتحة أمرهم. سعوا للمراجعة، وبذل الأموال الكثيرة فدية له، إلاّ أنّ ذلك لم يُقبل منهم. لم يتبق لهم سوى الحيلة، فأشاعوا أيامها أنه سيصيب قاتله أمر عظيم، وكثر الجدل والكلام حول ذلك، حتى صدّق هذا القول معظم الناس.

حين أنزلوه من السجن «إلى سوق الحلقة في صنعاء، ليذبح هناك»، وصل وهو مطرق، محرّك شفتيه، لا يلتفت يميناً ولا شمالاً. وهناك لم يتجاسر أحد من الذين أنزلوه على قتله.

مرّ وقت إلى أن جاء رجل متلفّع بثيابه، قيل إنّه من سلالة بني هاشم، من أبناء عم النبي محمّد، فأضجع الحُلم اليهودي «ثمّ سلّ جنبيّته، فذبحه بها»، ومضى بدون أن يعرفه أحد.

بقي الأقطع في السوق وقتاً، ثم، حسب ما نقل الشاهدون، أمر الأمير علي بن المؤيّد، الملّقب بجمال الإسلام، اليهودَ «بأن يجرّوه ويسحبوه على وجهه، فأرادوا أن يأذن لهم في حمله، فلم يرض، وبذلوا في ذلك مالاً واسعاً، فأبى أن يقبله، فسحبوه من سوق الحلقة حتى وصلوا به إلى باب شعوب». وفيه جاء الأمر: «أن يعلّق في نوبة من نوَب دائر صنعاء، بالقرب من باب شعوب، لينظر إليه من دخل صنعاء ومن خرج منها، فعُلّق، وبقي كذلك أياماً، حتى سال ودكه في الجدار، لأنه كان سميناً ممتلئاً شحماً، ولمّا أنتن وتأذى الناس برائحته، أُمر اليهود بأن ينزلوه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً. جاءوا بقضّهم وقضيضهم، فاجتمعوا على إنزاله وحمله، ودفنه في مقبرتهم. كان السعيد، كل السعد، عندهم، هو من لمسه وشارك في حمله».

- ٣ -

لم تعد الأيام والسنوات كما كانت، فإذا بدت في الماضي صعبة وقاسية، ولكنّها مألوفة، فقد أصبحت أكثر صعوبة، وأشدّ قسوة.

صار واضحاً أن اليهود «بعد قتل سليمان الأقطع ذلّوا وهانوا»، فتتابعت سلسلة العقوبات التي صدرت ضدّهم، لما أحدثوه منذ سماعهم بظهور المسيح المخلّص. فقد أمر أمير المؤمنين الإمام المتوكل، في آخر شهر شوال وأوّل شهر ذي القعدة من السنة نفسها [١٠٧٧هـ]، بمصادرة أموال اليهود، وكلّ أطيانهم التي لم يكونوا قد باعوها. وفي منتصف شهر ذي القعدة نفسه، أرسل الإمام «إلى كلّ جهة، طائفة من الجند ليرصدوا أسماء اليهود، ويرسلوها إليه. ثم قرّر عليهم زيادة في الجزية بمقدار عشرين مرّة».

بقيَ اليهود على هذه الحال، ولم يخفّف الإمام عنهم العقوبات إلاّ بعد ثلاث سنوات «بعد أن مات بعضهم بالجوع في أبيَن»، وأسلم الكثير منهم خوفاً من الهلاك.

خفّض عليهم نصف مقدار الزائد من الجزية، الذي أضافه كعقاب، ثم، بعد فترة، صار على أيّ يهودي تسليم ما عليه على قدر حاله، وليس حسب العدد. أمّا أموالهم أو ممتلكاتهم فقد بقيت بيد وكلاء الإمام حتى سنة ١٠٨٤هـ، وفيها «أطلق الإمام لليهود أموالهم، ورفع عنهم الزائد على الجزية، وقرّر أحوالهم».

عدم استقرار أحوالهم في السنوات الماضية أدّى إلى الكثير من المآسي، فإلى جانب الموت الذي داهم كثيرين بسبب الجوع، اضطربت عقول النّاس وأذهانهم. ففي سنة ١٠٨٢هـ ظهر الاضطراب في حساب اليهود لمواعيد أعيادهم، فجعلوا سبت السبوت في هذه السنة، في جُمادى الأولى وهو في جُمادى الآخرة، ليتراجعوا في العام التالي، لكنهم عادوا في ما بعد إلى القديم، ولم يُعرف ما الصواب.

لم يسترح هؤلاء القوم كثيراً، فسرعان ما عاد الإمام المتوكل في سنة ١٠٨٦هـ وأمر بأخذ العُشر من أموال اليهود. فكان ما تم جمعه كثيراً، وغير مسبوق.

بدا أن جلب الضرائب والجزية إلى الحضرة المتوكلّية هو قانون جند الإمام، ووكلاته وعمّاله وجُباته، كما هو المحرّك لغزواته وحروبه، المتّجهة لتأديب المخالفين له، يتساوى عنده، في ذلك، أتباع مذاهب السنّة الإسلاميون مع اليهود.

في ليلة الجمعة خامس شهر جُمادى الآخرة سنة ١٠٨٧هـ

كان على أبنائه وأحفاده وذويه البدء في حصر ما تركه من أموال وممتلكات ومقتنيات، قبل أن يبدأوا الجدل والصراع حول تسمية وريثه في الحكم، أو الرد على منتقدي غناه الكثير ومصادره، بالكشف عن غنائم حروبه، وما أخذه من لحج وعدن وحضرموت.

لقد توفي ليلتها، وأصبح على الجميع استرجاع أحداث ثلاث وثلاثين سنة قضاها الراحل في الحكم، ليقرّروا بعدها ماذا سيكون غداً.

- ٤ -

بعد صراع حول من هو الأجدر بخلافة المتوكل، تمّت مبايعة أحمد بن الحسن إماماً، ولُقِّبَ بـ«المهدي». بقي الحال، في المنحى نفسه، يمضي. ما مرّت شهور قليلة حتى عاد الجدل حول إخراج اليهود من جزيرة العرب، أو الحجاز.

في سبيل ذلك، ارتفع صوت القاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال، في المطالبة بإجلاء اليهود عن اليمن، باعتبارها «جناح الحرم». قال: «قد اتفق النّاس على أنّ اليهود، الذين حكى الله عداوتهم للإسلام، لا يقربون المسجد الحرام».

ذكَر بأنّ الإمام المتوكل إسماعيل أمر بإجلائهم، وأنّه كتب بخط يده، أثناء مرضه، آخر حياته: «إنّ هذه الطائفة الموجودة لا ذمّة لهم، وأنّه يجب إجلاؤهم من اليمن لصحّة الأحاديث النبوية بذلك. . . ولا عبرة بكلام فقيه من الفقهاء كائناً من كان، لمخالفته الحديث الصحيح».

الحديث الصحيح للنبيّ محمّد، كما يورده أبو الرجال،

هو: «أخرجوا اليهود عن الحجاز»، وفي صيغة أخرى: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب».

صار من المعروف أنّ الإمام المتوكل لم يتراجع عن قراره، قبل وفاته، إلاّ حين جاء إليه عدد من علماء الدين وفقهائه، وطلبوا منه التأني «لركّة الزمان، وموانع أخرى». مع هذا ظل أبو الرجال في سعيه لتحقيق رغبته، وهو ما ظهر في تشجيعه ومساندته للإمام الجديد على أمر الإجلاء بدون تمهُّل أو إبطاء.

في غُرّة شعبان من سنة ١٠٨٨هـ وجّه المهدي أمره إلى محمد بن المتوكل أمير صنعاء: «بإجلاء اليهود، وإعدام كنائسهم عن الوجود». فخاض علماء وفقهاء المدينة في نقاش بهذا الشأن مع الأمير. اتفق عدد منهم مع رأي الإمام، وهم القضاة: محمد بن علي قيس الثلاثي، ومحمد بن إبراهيم السحولي، وأحمد بن صالح بن أبي الرجال، طبعاً. المعارضون كانوا قلّة، وصوتهم غير مسموع.

مرّت سنتان، أو أقل، على هذا الأمر، حتى تحقق لمن أراد إيذاء اليهود ما أراد. بادر المهدي إلى هدم الكنائس في البون، وما وجد منها في اليمن. حتى تلك الكنيسة الشهيرة في صنعاء، التي كان قد اكتفى بإغلاقها وتسميرها، عاد وأمر بفتحها، فأُخرج ما فيها من كتب، وأريقت الخمور، التي تُقدّم كقرابين، وتُحفظ في مخازنها. حاول محمد بن المتوكل إرجاعه عن قراره هدم هذه الكنيسة لقِدمِها إلاّ أنّه لم يستجب.

وزاد، حين تم خرابها، في أمره بتعمير مسجد على أنقاضها.

قبل انتهاء عمارته وارتفاع أذانه، صار الكثيرون يعرفونه باسم «مسجد الجلاء»، لكن، قليلين جداً هم الذين تساءلوا: لماذا سُمّي هكذا؟

بدا لي أن الإمام المهدي حين أمر بإجلاء اليهود عن صنعاء، لم يكن يعرف المكان الذي عليهم أن يتوجهوا إليه. بدا لي، أيضاً، أن اليهود أنفسهم لم يعرفوا، إلى أين سيذهبون. كانوا كأنّهم أدركوا استحالة العودة إلى سيرتهم الأولى، وأن عليهم إعادة ترتيب أحلامهم بأورشليم، أو على الأقل، تأجيلها إلى حين. ليس بسبب خيبة أحلامهم، ولا نتيجة لآثار القسوة التي عوقبوا بها، كان عليهم القيام بذلك؛ وإنّما بسبب آخر، كما قالوا. لم يستطيعوا تناقل تفاصيله، أو تكرار خبره. كلّ واحد أراد ألاّ يسمع الآخر ما سمعه هو، فيما الجميع سمعوا بالخبر نفسه.

شبتاي زيفي الذي بعث أحلامهم مجدداً بأورشليم السلطة، كان قد أعلن إسلامه، بكلّ سهولة وبساطة.

في همس، باح البعض بألمه. أشار أحدهم إلى : أنّ بعض الأحبار كانوا يعتبرون شبتاي دجّالاً «إلاّ أنّ ذلك، إلى جانب محاربة الدولة العثمانية الإسلامية، لم يكن مبرّراً لفشل هذه الدعوة». أضاف: «ليس هناك من فشل أكثر من أن يقرّر هو وزوجته سارة الدخول إلى الإسلام».

ما الذي عليهم عمله، بعد كلّ ما جرى لهم؟

لم يبكوا، طبعاً، فقرار الإجلاء لم يتح لهم فسحة لذلك. وبدا أن وجهتهم ستمضي عكس أحلامهم، إلى هناك، إلى حيث لا يدرون.

ملحق خاص بكتاب الحولنيات

يُمكن تسميتها بأعوام الأحلام اليهودية ونكبتها، كما يُمكن اعتبارها نكبة لفاطمة، ففي هذه الأعوام سارت الأحداث، المفرطة في الأوهام والقوة، عكس وجهتها.

أصابني منظر تجمّع اليهود للرحيل من صنعاء بغصّة ألم لم أشف منها حتى الآن. الذين بقيت لديهم بعض الأملاك من بيوت وأدوات، قاموا ببيعها بأبخس الأثمان. «سأرافقهم إكراماً لفاطمة»، هكذا قلت لنفسي.

رحت لأستأذن من قصر عامل الإمام. قلتُ: «أهلي وأصحابي القدامى سيرحلون، عليَّ أن أودّعهم، أذهب معهم إلى أطراف اليمن». القاضي الشمسي لم يشجعني على الاستئذان. قال إنّني سأواجه الكثير من الأسئلة عن سبب رغبتي في مرافقتهم «يمكنك القيام بذلك، ولن يعرف أحد».

اشتريت حماراً واستأجرت آخر. أردت مساعدة المسافرين الفقراء على حمل أمتعتهم، وركوب أحدهما، إذا تعبتُ من

المشي؛ لكنّ ما أردته لم يتحقق. كان هناك الكثير من النساء المسنّات المحمولات على الظهور، ورجال كبار يحبون كالأطفال، لا يستطيعون الوقوف أو المشي خطوة واحدة، نساء حوامل مع أطفال رُضع، ومرضى لا عدّ لهم. ما الذي يمكن لحمارين عمله؟

اكتفيت بتسليمهما لأقرب محتاجَيْن، رجل مُسنّ لا يستطيع المشي، وامرأة تعاني من آثار سقوط جنينها. حدث ذلك، كما قالت، بعد بقائها ليلة بدون غطاء يقيها من البرد. أكّدت أن زوجها الذي جاء بها قبل يوم استعداداً للرحيل مع الجموع عاد فجراً لأخذ بعض الحاجيات الضرورية لوضعها الصحي، وسيلحق بها.

رأيت خالي وزوجته، اللذين طرداني من منزلهما. كان العجز قد أنهكهما، هو لم يعرفني إلاّ بصعوبة، أمّا هي فقد صارت عمياء، ضعيفة السمع.

حين التفت لأطمئنّ إلى المرأة المجهضة، أدهشتني المفاجأة. إنّه سعيد. نعم، ابني سعيد، يمشي بجوار الحمار الذي يحملها. هل هو زوجها؟

تواريت في البداية لكي لا يراني؟ لقد كان يخدعني برفضه للزّواج، وظهر أنه متزوّج من يهودية؟ لماذا أخفى عنّي زواجه؟

ارتبك حين وجدني أمامه، ولم يتحرّك أو ينطق بكلمة.

«ما بك يا ابني. لماذا لم تخبرني أنّك متزوّج؟ كنتُ سأفرح. هل خفت أن أرفض زواجك من يهودية؟».

تشجّع، كما بدا، وهو يسمعني، قال:

«سامحني يا أبي. . إنّها قصّة طويلة. هذه فاطمة، مثلي، لا تعرف إذا كانت يهودية أم مسلمة؟ هي ابنة صبا وعلي المؤذّن اللذين تعرفهما. يهودية لجهة الأم ومسلمة لجهة الأب».

بدت على المرأة دهشة كبيرة، وهي تتعرّف إليّ. أضاف:

«تعرف يا أبي أنّك تركتني عندهم رضيعاً، وقد بقيت في بيتهم لمدّة ستة عشر عاماً. أحببتها وأحبّتني. حاولت صبا إقناع زوجها بالقبول بزواجي من فاطمة، إلاّ أنّه رفض بحجّة أنّ أبي أصله يهودي، وابنته مسلمة لأن أباها مسلم، ثمّ تحوّل إلى عذر آخر، لم يعد معه يذكر الأوّل، وهو أنّني أخ لفاطمة من الرضاعة، مع ان صبا أكّدت أنني لم أرضع منها قط، وأنها بعد تكرار رفضي لتذوّق حلمة ثديها بفمي، ظلّت تجرّعني حليب الغنم والبقر حتى اعتدت ذلك».

«لكن، لماذا لم تخبرني؟»

«لم أرغب في إزعاجك. وإثارة ذكرياتك المؤلمة».

ماذا سأقول، وأنا أسمع وأرى وأعيش القصّة نفسها من جديد، اختلف فيها الاسمان، أمّا القصّة فهي، ربّما نفسها.

«تعاهدنا ألاّ نفترق. نتقابل سرّاً طوال السنوات الماضية.

قرّرنا الرحيل مع اليهود، بعد أن صارت حُبلى بالشهر الثالث. قلنا إنّنا يهوديان، أيضاً، هي من جهة الأم، وأنا من جهة الأب. وكما ترى، في هذا الحشد لن يسألنا أحد من أنتما؟»

«صحيح، المصائب والآلام توحّد النّاس. يصبحون متساوين مهما اختلف دينهم، أو أصلهم، أو لونهم، أو جنسهم» حدّثت نفسي وبقيت صامتاً، لأسمعه.

«تزوّجنا على طريقتك مع أمّي فاطمة، قالت لي: زوّجتك نفسي، فقلت: قَبِلت»

«ليست طريقتي معها. هي طريقة أمّك، وحدها، طريق فاطمة».

كان هناك عدد من الجنود الشباب الذين كُلّفوا بمرافقة المسافرين. لم ينتبهوا لوجودي، وربّما، لم يتعرّف إليّ أحد منهم من قبل.

كثيرون كانوا يتخلّفون عن المشي ضمن الجموع، يصل بهم العجز إلى التوقف عن أيّ حركة. اختاروا طريقاً بسيطاً وسهلاً، إذْ رفضوا أية مساعدة واستسلموا لغيبوبة الموت الأبدية. لم نستطع القيام تجاههم بأيّ شيء سوى دفنهم، كيفما أُتيح لنا. قال سعيد: «لا فرق، أن ندفنهم أو نتركهم هكذا للرّيح والغربان. لقد صارت الأرض كلّها مقبرة».

بعد ثلاثة أيّام وصلنا إلى بلدة، قيل لنا إنّ اسمها «مَوْزَع».

ظلّ أحد الجنود يردّد: «ابقوا هنا. . إلى أين ستروحون، بعد هذا؟!».

هل مُقرّر لنا، أعني لليهود، من قِبل حضرة الإمام الرحيل إلى هذه البلدة، والبقاء فيها. أم أنها محض صدفة؟ مزاج جنديّ ملّ من زحف مرضى وجياع وأشباه موتى؟

بقاؤنا في هذه المنطقة الحارة، يشبه سفرنا إليها. الجوع والحمّى لازما الجميع. ليس هناك ما يوقف النّاموس عن امتصاص بقايا دماء الواصلين. الموت جرعة خلاص أخيرة، بمثابة الشافي المنتظر. معه صارت الحوادث تبدو لديهم عابرة، أو أنّها لم تحدث أصلاً، أو أنّ ما حدث كان يحدث في النسيان. طلب منّي خالي المسامحة والغفران، وهو يموت في نهار صيفي حار. زوجته لم تطلب منّي ذلك، بل قامت هي بمنح غفرانها لي، مع شرط أن أكون قد عدت، صادقاً، إلى يهوديتي، وتبت عن آثام الكفر باعتناقي الإسلام. لستُ متأكّداً أنّها قد سامحتني، أو غفرت لي. كان يعني ذلك قدرتها، أيضاً، على الغفران لنفسها، وهو ما لم يحصل. من عرفها، مثلي، سيصل إلى هذه القناعة. ماتت بأحقادها، كما مات أخي. وربّما، سيموت أسعد والمؤذّن بأحقادهما، أيضاً. مثل حاييم، هو من يستريح، يمضي في نسيانه غناه إلى القبر. فاطمة، أيضاً، والشبزي. سمعت عن الشبزي الكثير. أين هو؟

حاييم مات، وفاطمة. هو مازال حيّاً. هل يمكن أن يفعل شيئاً من أجل اليهود؟

مع اثنين، مضيت إلى تِعِز، حيث كان. بنهار وليلة وصلنا إليه. عندما رأيناه، فقط، شعرنا أننّا ما زلنا أحياء. قال لنا: «أعرف ما الذي جاء بكم إليّ، لقد قُضي الأمر، وسُمح بعودتهم الى صنعاء»

انا حفيد اليهودي الحالي..
حفيد فاطمة

- ١ -

لا أعرف من أين أبدأ، لكنني أعرف أنني لم أكن أرغب في الكتابة، ومواصلة ما بدأه جدّي في تدوين حوليّات السنين لما جرى لليهود في بلاد اليمن، لولا ما حدث لجدّي وجدّتي وأبي من مصير.

ستقولون إنّكم صرتم تعرفون مصير جدّتي، ممّا أورده جدّي في حولياته. لكم العذر، فأنتم لا تعرفون مثلي مصيرها الثاني.

أتحدّث منذ البداية، وكأنّكم تعرفونني، لأنّني أردت أن يكون ما ساكتبه ملحقاً بحوليّات جدّي. مع هذا، فأنا إبراهيم سعيد سالم، حفيد اليهودي الحالي وفاطمة، ابن سعيد المولود من أمّ مسلمة وأب يهودي، أو كان هكذا. كما أنّني ابن فاطمة بنت صبا اليهودية وعلي المؤذّن المسلم. يناديني أبي بـ الصنعاني، لأنّ أبي وأمّي ولدا في صنعاء. أمّا أمّي فتلقّبني بـ الريدي، لأنّ أجدادي، كما تقول، جاءوا من ريدة. جدّي من

جانبه، لا يناديني إلاّ بالحيسي. كشف لي أنني تكوّنت جنيناً في مَوْزَع القريبة من حيس. قلت له إنّ اسمي سيكون لهذا «المَوْزَعي». قال إنّ أمّي كانت أثناء حملها هناك تتوحّم بحلوى وقطاط، يُجلبان إليها من حيس.

«جئتَ من حلاوة حيس وقطاطها الحجري الرخو الأبيض، فأنت حيسي أصيل». لا أعرف ما هو الأصيل، وما هو المزيّف. جدّي نفسه لم يكن مع فكرة هذا التقسيم، مع ذلك كان يردّد مثل هذه الكلمة.

هكذا عرفت أنني ولدت بعد رجوع اليهود إلى صنعاء من مَوْزَع. حينها قرّر أبي أن يسكن في بيت جدّي، مع أمّي، التي ظلّت خمساً وثلاثين سنة دون أن يعرف ابوها وأمّها أين هي؟. بل بدت أنها لم تقابل، من يومها، أحداً، سوانا الأربعة. طبعاً، بعد إنجابها أختي شمعة.

في البداية، كنتُ لا أدري كيف أصنّف نفسي، هل أنا يهودي أم مسلم؟ على الأقل، لا أعرف من أيّ أصل أو ثقافة أنحدر؟

لازمني هذا السؤال خمس سنوات حتى صرت أعرف الاجابة، تماماً. أمضيتها مع جدّي لأتعلّم منه اللغتين العبرية والعربية، ثمّ الديانات اليهودية والإسلامية والمسيحية، وبعض المعارف عن البوذية والتاوية والكنفوشية، والأساطير البابلية والإغريقية والآداب العربية والفارسية والهندية.

حين بلغ عمري أربعة عشر عاماً، صرت أعرف من أنا، إذ كنت قد اكتشفت الثقافة التي أنحدر منها، أو الأصل الذي أنا منه. لقد تلخّص ذلك في كلمتين، أو اسمين، فأنا من فاطمة واليهودي الحالي، وإليهما أعود. هما أصلي القديم، وسلالتي القادمة.

- ٢ -

كنت أقرب النّاس إلى جدّي، بعد جدتي فاطمة، طبعاً، والتي ظلّت معه، تقاسمه كلّ لحظة في حياته، تدخل في أحاديثه وكلماته، في يقظته وأحلامه. أعطاني كتبه التي ألّفها، وتلك التي قرأها.

حين رآني مندهشاً وأنا أقرأ كتابه «حوليات اليهود اليمانية»، أطلعني على ثلاث صفحات، قال إنّها لمؤلف مجهول، وكتابين ألّفهما مسلمان عن تلك الفترة. بدت أخبار اليهود، وما جرى لهم في سنوات النكبة، متطابقة، ولا تختلف، سوى بالصياغة، عمّا أورده جدّي؛ كأنّ قلماً واحداً خط هذه الأخبار في صفحات المؤلف المجهول، ومدوّنات يحيى بن الحسين وعبد الله بن علي الوزير واليهودي الحالي.

تجاوز عمره التسعين عاماً، إلاّ أنّه ما زال شاباً، كما كنت أراه، وكما كان هو يعتقد، أيضاً، ويردّد ذلك.

في عامه الأخير، قرّر نقل رفات شريكته فاطمة من قبرها المعزول بجوار مقبرة اليهود إلى مقبرة المسلمين.

بعد أن تحققت رغبته، سألني وأجاب في الوقت نفسه: «هل سيسرّها ما عملتُ؟ كانت ترى أنّ كلّ الأرض سواء، متساوية كمساواة الإنسان الذي عليها». لكن، ما لم يتوقّعه هو موقف أهلها المسلمين من ذلك.

ذهبتُ معه إليهم في ريدة. كان أبوها وأمّها قد ماتا. لم يعد منهم حياً هناك سوى بعض أبناء عمومتها وأخوالها. اعترف لهم بقصّتهما القديمة، وطلب منهم المسامحة والغفران. أخبرهم عن قبرها الجديد الذي باستطاعتهم زيارته.

«الإنسان يعود إلى أهله، وروحه من روحهم حتى وإن مات» قال لهم.

شاهدنا ارتباكاً وحركة منفعلة، وهم يتهامسون ويقررون استدعاء بعض أبناء عمومتها وأخوالها الآخرين. حينها قال جدّي: «تركنا في السمسرة التي وصلنا إليها صرّة فيها ذهب وفضّة، أوصت بهما فاطمة لأهلها، لكم، سنروح نأتي بها ونرجع».

في الطريق، ونحن نبتعد عن ريدة، مع حمارينا اللذين حملانا من صنعاء، قال: «كانت عيونهم تقذف شرّاً. أرادوا قتلنا». لم أفهم. أضاف: «سيقتلونني بسبب ما قمت به مع فاطمة، لاعتقادهم أنه مخالف لدينهم، وأنّه عار للأسرة والقبيلة. أنت سيقتلونك لأنّك ثمرة، أو غصن من شجرتنا، المطلوب إبادتها، تماماً، من قبلهم».

بعد ثلاثة أيام، ذهب أبي لزيارة قبر أمّه الجديد. قال لي إنّه، مع خواطره عنها وعن جدّي، نسي نفسه هناك، حتى مضى وقت من الليل، حين انتبه إلى أصوات غاضبة، وجرّافات تحفر بتوتر وشدّة. ذكر أنّهم أربعة، وإلى جانبهم المشهدي، حارس المقبرة والساكن بجوارها. «يبدو أنّه دلّهم إليها» قال.

أضاف: «سمعت أحدهم يقول: لا يوجد مكان لهذه الكافرة، إلاّ مع الكفّار اليهود في مقبرتهم. أدركت أنّهم من أهل أمّي، الذين زارهم أبي، من أهلي أنا. رغبت في الحديث إليهم، مناداتهم: يا أعمامي، واخوالي، يا أهل أمّي، يا أهلي واخوتي. لكنّني لم أستطع. رأيتهم غاضبين جدّاً، راحوا يخرجون بقاياها ويضعونها في زنبيل. تمنيت لو ألمسها، أضمّها إلى صدري. أنا اليتيم المحروم من حنانها تمنّيت إمساك عظامها بتأنٍّ وحبّ، وليس كما كانوا يرمون بها بعنف إلى الزنبيل. أن أقول لها لأوّل مرّة: يا أمّي».

أبي نفسه أخبر جدّي، في ما بعد، أنّ هؤلاء دفنوها في مقبرة اليهود «قالوا لهم إن لصّاً سرق من مقبرتهم عظام هذا الميّت، ووضعها في مقبرة المسلمين». فرح جدّي، حين عرف أنّ رفاتها صار ضمن المقبرة ولم يعد معزولاً، لكنّه بعد يوم، فقط، جاء من يخبره بعودة الرفات إلى القبر المعزول القديم. لقد اكتشفوا أنّ القبر الذي تمّ نبشه هو قبر المعتزلة، كما صاروا يسمّونها، وليس غيره.

يومها، ظلّ جدّي نائماً لفترة طويلة، وعلى صدره كتابه الذي ألّفه عن ذكرياته مع فاطمة. لم يعد يردّ على ندائنا، واكتشفنا أنّه مات.

- ٣ -

اراد أبي أن يتدبّر جثة جدّي سرّاً ليقبره إلى جوار فاطمة، لكنّ أحدهم اكتشف ذلك وقبض عليه. ظنّ أنّه لصّ مقابر، ولم يفلت منه حينها، كما قال، إلاّ بأعجوبة، لم أعرف تفاصيلها.

بعدها، لم يجد أبي سوى مقبرة المسلمين، باعتباره مسلماً، حسب ما أعلن. إلاّ أنّه لم يمكث في قبره سوى ليلة واحدة. قال أبي إنّ الحارس المشهدي أخبره بأنّ اربعة جاءوا، وحفروا قبره، ثمّ أخذوا جثّته، ووضعوها في قبر معزول، وبعيد عن مقبرة المسلمين: «أخبروني أنّه كافر، ولا يجوز قبره مع المسلمين، مع أنّني أعرفه في خلقه، وطيبة قلبه».

في تلك الليلة، بقي أبي يهذي دون توقّف: «ما هذا؟ كيف؟ أرض لا تقبل بهما ولا ناس.. لا أحد.. لا أرض ولا أحد.. لا أحد». تحدّث عن حروب الموتى. قال إنّهم يخرجون في الليل، يتصايحون، ويتقاتلون بالفؤوس والحجارة. أضاف: «يتقاتلون في النهار، ليس في الليل فقط. أنا رأيتهم بعينيّ». يتحدّث كأنّه يكلّم نفسه، بدا لي أنّه ينهار كلّياً، مع هذا لم

يتوقّف. قبل أن يمضي في صمت لا نهاية له، قال، وهو يحرّك يديه في الهواء: «هنا.. هناك.. هناك.. هنا.. لا أدري.. اليهودي الحالي وفاطمة لم يجتمعا حتى في مقبرة واحدة.. ماذا؟ ماذا؟.. كيف؟ تُطحن عظامهما وتُذرّ في الريح.. هكذا في الرّيح.. بلا قبر.. ولا وطن.. في الرّيح؟».

في الصباح، لم نجد أبي في البيت. بحثنا عنه في جوار المقبرتين، حيث قبرا أبيه وأمّه المعزولين. لم نجده، كما لم نجد فاطمة ولا اليهودي الحالي. وجدنا قبريهما مفتوحين وخاليين منهما.

أخبرونا أنّ أبانا سعيد ذهب وبيده صرّة نحو الشرق. آخرون قالوا نحو الغرب. البعض ظنّ أنه اتّجه شمالاً، فيما أكّد غيرهم أنه مضى نحو الجنوب. قليلون اعتقدوا غير ذلك، غير ذلك، تماماً.

«عالجت موضوع الأنا – الآخر على نحوٍ بالغ الجسارة المضمونية والتشويق التقني...».

جابر عصفور – «الحياة»

«عنوان لافت لرواية تستوقفنا حكايتها...».

يمنى العيد – «السفير»

كانت فاطمة تقرأ القرآن على سالم، الشاب اليهودي، وتعلّمه اللغة العربية. وكان يعلّمها هو اللغة العبرية. تحابّا، ولكنّه حب محرّم في ظلّ الخلاف بين اليهود والمسلمين في قرية ريدة اليمنية.

مضيا غير مكترثَين بالأصوات المعترضة. استقرّا في صنعاء حيث بدأت رحلة أخرى من المواجهة...

رواية حب قوية تنقل القارئ إلى أجواء الصراع الذي عاشه اليمن في القرن السابع عشر بين المسلمين واليهود.

علي المقري كاتب وشاعر يمني. يعمل في الصحافة الثقافية منذ ١٩٨٥. صدرت له عن دار الساقي رواية «طعم أسود... رائحة سوداء» التي اختيرت ضمن القائمة الطويلة لجائزة بوكر العربية ٢٠٠٨-٢٠٠٩.

